غونتر غراس

ترجمة : غانم محمود

الطيور الخمسة

وقصص أخرى



منشورات
بيت القصة

الطيور الخمسة

وقصص أخرى

منشورات

بيت القصة

اسم الكتاب : الطيور الخمسة وقصص ألمانية أخرى
المؤلف : غونتر غراس . انّا سيغرس وآخرون
المترجم : غانم محمود
لوحة الغلاف : بيكاسو
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر (بيت القصة)
الطبعة الأولى ١٩٩٥

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

غونتر غراس

ترجمة : غانم محمود

الطيور الخمسة

وقصص ألمانية أخرى

منشورات
بيت القصة

مقدمة

يؤكد الروائي الالماني ايرفن شترتماتر : «ان روايتي هي الأخت الكبري لقصصي القصيرة» ، وتصف الروائية الألمانية كريستاولف النصوص المكثّفة والمؤثرة للغاية للقصة القصيرة ، بانها عبارة عن «روايات مجزأة» . أما الروائية الالمانية الراحلة انا سيغرس ، فقد أنجزت خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياتها مجموعة من القصص القصيرة ، أُعتبرت من بين أهم مؤلفاتها الأدبية الابداعية .

من الخطأ الفادح ان يُثار الجدل عن هامشية «الأشكال القصيرة» مقارنة مع «الكبيرة» ، وان يسود التصور«أن للقصة القصيرة مهمة آنية ومحدودة فقط» . ان نصوص القصة القصيرة يمكن أن تكون بمثابة عناصر البناء للاشكال الملحمية الكبيرة .

أوضح الأديب الالماني فيرنر برونينج ، وهو أحد رواد حركة الأساليب والأشكال الحديثة للقصة القصيرة : «انني أعتقد ان انجاز القصة القصيرة ، وفقاً لمقوماتها ، لم يكن أقلّ شأناً من انجازات الرواية . وأعتقد بانها ، بجدارة ، قد ترسخت بصورة تتناسب مع

مواضيعها وعناصر تكوينها ، وتعمقت في عوالم الناس الباطنية ، وفي شاعرية أحداث حياتنا اليومية ، عبر خوضها صراعاً من نمط جديد » . فالرموز اللغوية المكثّفة ، والوعي الحاذق في توظيفها ، وحبكة النص في القصة القصيرة تعطينا أمثلة لنماذج تقف على مقربة من النماذج المختارة من النصوص الشعرية .

في ضوء الأفكار المذكورة أعلاه ، اخترت نماذج من القصة الالمانية القصيرة وقمت بترجمتها ، وها أنا أقدمها للقارئ ، اضافة جديدة في ميدان فن كتابة القصة القصيرة الالمانية المترجمة الى العربية . انها محاولة متواضعة ، آمل ان تسدّ بعضاً من الفراغ الذي نعاني منه في ترجمة النصوص الالمانية الابداعية .

غانم محمود

١٥ / ٥ / ١٩٩٣

الـمـأوى

أنّـا سيغـرس

في صباح يوم من شهر ايلول ١٩٤٠ رفرفت راية الصليب المعقوف الكبرى للبلدان المحتلة من قبل الالمان فوق ميدان الكونكرد في باريس ، حيث كانت طوابير المنتظرين أمام المحلات التجارية طويلة طول الشوارع ذاتها ، علمت لويزة موينير ، زوجة عامل الخراطة وأم أطفال ثلاثة ، بأن المرء يستطيع شراء البيض من أحد المحلات في المنطقة الادارية الخامسة عشرة .

أسرعت الى هناك ، ووقفت ساعة كاملة في الطابور وحصلت على خمس بيضات ، لكل فرد من أفراد العائلة بيضة واحدة . في أثناء ذلك تذكّرت وجود صديقة قديمة من زمن المدرسة في هذا الشارع ذاته . انها انيته فيلارد ، موظفة الفندق . لقد التقت مع فيلارد أيضاً ، التي كانت مع ذلك في حالة مضطربة وغريبة ، على الرغم من هدوء وحسن سلوك شخصيتها .

حدثتها فيلارد ، أثناء تنظيفها الشبابيك والمغاسل ، بمساعدة موينير أيضاً ، بأن الغستابو قد اعتقلوا أحد النزلاء ظهرالأمس ، الذي سجّل نفسه في الفندق كمواطن إلزاسي ، ولكن اتضح فيما بعد انه هرب قبل بضع سنوات من معسكر اعتقال الماني . أثناء تنظيفها الزجاج قالت فيلارد ، بأن هذا النزيل قد نقلوه الى (سانته) ، وانهم سيأخذونه من هناك الى المانيا ، وربما سيعدمونه أمام الجدار .

غير ان الأمر الذي كا يعنيها أكثر من هذا النزيل - لأن الرجل يبقى رجلاً ، والحرب هي الحرب - ان ينصب على ابن النزيل .

كان للنزيل الالماني طفل ، صبي في الثانية عشرة من العمر ، تقاسم معه الغرفة ، وكان يذهب هنا الى المدرسة ، ويتحدث الفرنسية مثلها ، وكانت أمه متوفية . ان حالتهما كانت مرتبكة كما هو الحال مع الغرباء في الغالب . ولقد أخذ الصبي نبأ اعتقال الأب بعد عودته من المدرسة بصمت وبلا دموع . ومع ذلك ، طالبه ضابط الغستابو بأن يجمع حاجياته ، لكي يحملوه في اليوم القادم الى المانيا ويعيدوه الى أقربائه . وهنا انتفض الصبي فجأة وأجاب ، بأنه يفضل ان يرمي نفسه تحت سيارة ، على ان يعاد الى هؤلاء الأقارب . لقد أجابه ضابط الغستابو بحدة ، بأن الأمر لا يتعلق في أن يعود أو لا يعود ، بل في أن يعود الى أقربائه أو أن يدخل مدرسة الارشاد التربوي الفاشي . كانت أنيته قد كسبت ثقة الصبي ، وقد طلب منها المساعدة في الليلة الماضية . وهي قد أخذته أيضاً في الصباح الباكر خارجاً ، الى مقهى صغيرة ، كان صاحبها صديقاً لها . انه الآن جالس هناك وينتظر . ولقد اعتقدت ، ان من البساطة ايجاد مكان يؤوي الصبي ، لكنها قد واجهت الرفض لحد الآن . وان صاحبة الحانة أيضاً تخاف الألمان للغاية ، وغضبت من تهريب الطفل . كان الخوف كبيراً بين الجميع .

استمعت موينير الى ذلك كله بصمت ، ثم قالت : «أود بلهفة ان أرى مثل هذا الصبي» . وعلى اثر ذلك أخبرتها فيلارد عن عنوان المقهى وأضافت «آمل ان لا تخافي ، من أن تجلبي للطفل بعض الملابس» .

قادها صاحب المقهى ، بعد ان عرّفته بنفسها بواسطة ورقة مكتوبة من فيلارد ، الى صالة البليارد التي كانت تغلق في الصباح . هناك كان الصبي جالساً يراقب الفناء . كان بسن أكبر أبنائها ، وكانت ملابسه

مشابهة لملابسهم ، وعيونه رمادية اللون ، وكانت قسمات وجهه خالية من الغرابة ، التي تظهره بمظهر غريب . أوضحت موينير ، بأنها قد جلبت له بعض الملابس . لم يشكرها ، بل نظر اليها فجأة نظرة ثاقبة فقط . كانت موينير حتى ذلك الوقت أماً مثل سائر الأمهات : تقف مع الطوابير ، تصنع من اللاشيء شيئاً ، ومن القليل الكثير . وكانت تأخذ العمل الى البيت الى جانب عملها البيتي . كانت هذه الأمور بأجمعها تأخذ مسارها المألوف . الآن ، وتحت نظرة الصبي تنامى بقدر هائل في أعماقها هذا المألوف ، وبهذا القدر الهائل تنامت قوتها . قالت : «كن في السابعة من مساء اليوم في مقهى بيارد بين الصالات» .

خرجت مسرعة الى البيت . ومن أجل أن تضع شيئاً قليلاً ملفتاً للنظر على المائدة ، فقد كان عليها أن تعمل الكثير . كان زوجها موجوداً في البيت . لقد قضى سنة حرب كاملة في خط ماجينو . وكان منذ ثلاثة أسابيع قد تسرّح وقبل أسبوع أعيد افتتاح مصنعه ، ووضعوه في وجبة نصف يوم عمل ، وكان يقضي معظم أوقات فراغه في المقهى ، ثم يعود غاضباً الى البيت من نفسه ، لأنه ترك شيئاً من حاجياته في المقهى .

أرادت المرأة التأثير على زوجها ، منتبهة الى وضعه النفسي ، وبدأت تتحدث وهي تقشّر البيض ، في محاولة لتمهيد الطريق لما ترومه . لكن ما ان وصلت الى نقطة ، ان الصبي الغريب قد هرب من الفندق ، وهو يبحث عن حماية من الالمان ، واذا بالزوج يقاطعها على الوجه التالي : «لقد ارتكبت صديقتك أنيته حماقة حقاً ، وذلك في مساعدتها لحدوث الهرب . لو كنت في محلها ، لاحتجزت الصبي . فعلى الالماني ان يجد طريقه بنفسه في كيفية التعامل مع أبناء وطنه . . . انه شخصياً لم يعمل شيئاً من أجل رعاية طفله . اذاً ، كان

للضابط الحق أيضاً ، عندما أراد ارسال الطفل الى بلده . لقد احتل هتلر العالم حالياً ، وهنا لا تنفع عبارات طنانة ضد ذلك» . غير ان المرأة كانت ذكية بما فيه الكفاية ، لتنقل مدار الحديث الى موضوع آخر . لقد رأت المرأة في أعماقها لأول مرة بوضوح تام ما حلّ بزوجها ، الذي كان دوماً يشارك في أي اضراب أو تظاهرة ، وكان في كل يوم ١٤ تموز يتصرف بتلك الصورة ، وكأنه يريد اقتحام الباستيل مرة ثانية لوحده . لكنه أصبح يشبه ذلك الكريستوفوروس في الحكاية الخرافية - ومثله الكثيرون - الذي ينتقل دوماً الى جانب الأقوى ، ومن ثم يجد نفسه أقوى من سيده ، وينتهي به الأمر في نهاية المطاف ، الى جانب الشيطان . ومع ذلك فلم يكن هناك أي مجال للحزن ، لا في طبيعة هذه المرأة ، ولا في يومها المشحون بالأعمال المختلفة . كان الرجل على أية حال زوجها ، وكانت هي المرأة ، وهنا كان الصبي الغريب ينتظرها . لذلك ذهبت في المساء الى المقهى بين الصالات وقالت للطفل : «أستطيع أن أصحبك معي أولاً غداً صباحاً» . لقد نظر الصبي اليها مجدداً نظرة حادة ، وقال : «لا تحتاجين الى أخذي ، اذا كنت خائفة» أجابت المرأة بجفاف ، بأن الأمر يتعلق فقط بانتظار يوم واحد . قدّمت المرأة رجاء الى صاحبة المقهى ، للاحتفاظ بالطفل ليلة واحدة فقط ، بدعوى أنه قريب لها . لم يكن أي شيء خاص بهذا الرجاء ، لأن باريس كانت مليئة بالنازحين .

في صباح اليوم التالي أوضحت المرأة لزوجها «قابلت بنت عمي كوزينه ، وان زوجها موجود في مستوصف المعتقلين في بيتيفير ، وهي تود أن تزوره لبضعة أيام . لقد طلبت مني مترجية ان أحتفظ بطفلها طوال هذه الفترة» . قال الرجل الذي لم يكن يحتمل وجود الغريب بين جدرانه الأربعة «آمل ان لا تتحول هذه الحالة الى حالة دائمة» . لقد جهزت للصبي فراشاً . وفي طريقهما الى البيت سألت الطفل : «لماذا

لا تريد العودة في الواقع ؟ » أجابها : « بامكانك ان تتركيني هنا ، اذا كنت خائفة . لن أذهب مع ذلك الى أقاربي . ان أمي وأبي قد اعتقلا من قبل هتلر . لقد كتبا وطبعا ووزعا منشورات سرية . ماتت أمي . وكما ترين ، فقد فقدت سناً أمامية . لقد ضربوه هناك في المدرسة ، لأنني امتنعت عن المشاركة معهم في انشاد نشيدهم . كان أقاربي فاشست أيضاً ، وكانوا يعذبونني أكثر من الجميع ، وكانوا يشتمون أمي وأبي » . لقد رجته المرأة في أن يلتزم الصمت فقط أمام الزوج والأطفال والجيران .

لم يستطع الأطفال أن يطيقوا الصبي الغريب ، لا بالجيد ولا بالسيئ . كان يعزل نفسه ولا يضحك . والزوج لم يستطع أن يطيق الصبي فور وصوله . وقال بأن نظرة الصبي لا تعجبه . لقد وبّخ زوجته ، لأنها تقطع حصة الصبي الغذائية من حصص العائلة ، كما وتحدّث عن بنت العمة ، لأنها من الاساءة ، في ان تثقل كاهل الآخرين بالأطفال . ان شكاواه هذه كان يذكرها بأسلوب تعليمي ثم ينتقل ليقول بأن الحرب على وشك الضياع ، وبأن الألمان على الرغم من احتلالهم البلد ، إلا انهم يتقنون النظام ويتصرفون وفقه . وعندما سكب الصبي جرّة الحليب ذات مرة ، قفز الزوج وضربه . لقد أرادت الزوجة أن تهدئ الصبي فيما بعد ، ولكنه قال : « مع ذلك ، فهنا أفضل من هناك » .

قال الرجل : « أرغب مرة ثانية بقطعة جبن حقيقية تقدم لي كجزء أخير من وجبة الطعام » . وفي المساء جاء وهو في غاية الانفعال « تصوّري ما شاهدته . شاحنة المانية كبيرة مليئة تماماً بالجبن . انهم يشترون كما يحلو لهم ، فهم يطبعون الملايين من النقود ويصرفونها » .

بعد مرور اسبوعين أو ثلاثة ، زارت موينير صديقتها انيته . لم تكن الصديقة مسرورة بهذه الزيارة ، وحذّرت صديقتها من عدم

المجيء الى هذا الحي نهائياً ، لأن الغستابو أخذوا يهددون ويتوعدون ويلعنون ، لأنهم قد عرفوا في أي مقهى كان الطفل ينتظر ، وان امرأة قد زارته فيها ، وان الاثنين قد غادراها في وقتين متتاليين . لقد فكّرت موينير في طريقها الى البيت بالخطر الذي يتهددها هي وذويها . لقد تأملت الأمر طويلاً ، و فكرت ، بأنها قد تصرفت بدون تبصّر وفي حالة انفعال عاطفي سريع . وان طريقها الى البيت قد أثبت ما توصلت له : الطوابير الطويلة أمام المحلات التجارية ، ومحلات أخرى مغلقة ، وأصوات التنبيه للسيارات الألمانية ، التي كانت تنطلق بسرعة فوق الشوارع ، والصلبان المعقوفة فوق الأبواب . لقد كانت منفعلة الى تلك الدرجة التي دفعتها لتحية الصبي الغريب مرة ثانية ، حيث مسّدت شعره في المطبخ .

لكن الرجل قد نهرها ، لأنها أصبحت أكثر جنوناً بهذا الطفل . لقد أطلق العنان لتذمره – لقد تحولت الآمال جميعها فجأة الى حالات يرثى لها ، الى مستقبل كئيب مقيد – ، خاصة وان الأطفال كانوا يحرضونه على الصبي الغريب . وبما ان الصبي كان حذراً للغاية وكان صموتاً جداً ، لكي لا يدع أية فرصة عليه ، فان الرجل كان يضربه بدون أي سبب باستمرار ، حيث يكفي ، بأن نظرة الطفل وقحة للغاية . وكان شخصياً قد فقد آخر ماكان يتمتع به . كان يقضي الجزء الأعظم من وقت فراغه في المقهى ، وكان الأمر يخفف عليه بعض الشيء . لقد استولى الألمان في هذه الأثناء على ورشة حدادة تعود لحداد في نهاية الزقاق .

لقد بدأ الزقاق فجأة ، بعد ان كان لحد الآن هادئاً وخالياً من الصلبان المعقوفة ، يزدحم بالعمال الحرفيين الألمان ، وتكدست سيارات المانية كان ينبغي تصليحها . احتل الجنود النازيون المقهى وتصرفوا بها وكأنهم في بيوتهم . ولم يستطع زوج موينير ان يحتمل

هذا المنظر . لقد وجدته الزوجة في الغالب ساهماً على منضدة المطبخ . سألته ذات مرة ، بعد ان جلس طوال ساعة كاملة بلا حراك ورأسه بين ذراعيه ، وبعينين مفتوحتين ، بماذا كان يفكر في أثناء هذا الوقت . «بلا شيء وبكل شيء . وعلاوة على ذلك ، بشيء بعيد تماماً .تصوّري ، بأنني قد فكرت قبل قليل بذلك الألماني ، الذي كان ضد هتلر ، الالماني الذي اعتقله الالمان . أود أن أعرف حقاً ، ما حلّ به . ماحلّ به وبابنه» . ردّت موينير «لقد قابلت فيلارد قبل فترة قصيرة . لقد نقلوا الألماني آنذاك الى (سانته) . ومن المحتمل انه قد أعدم في أثناء هذه الفترة . ولقد اختفى الطفل ، وان باريس كبيرة ، سيكون قد وجد له سقفاً يؤويه» .

لم يرغب أي شخص في أن يشرب كأسه بين الجنود النازيين ، ولذلك انسحب المرء في الغالب ، مع بضع قنانٍ الى مطبخ عائلة موينير ، مع انهم في السابق لم يألفوا هذه الحالة ، بل وكادت ان تكون محتقرة . كان أغلبهم زملاء موينير في العمل . في المصنع ذاته ، وكانوا يتحدثون بحرية . لقد تخلّى المدير في المصنع عن مكتبه الى القوميسار الالماني . وكان هذا يروح ويأتي كما يشاء ، مثل بقية الخبراء الالمان الذين كانوا يفحصون ويدققون ويأخذون . لم يعيروا لأنفسهم أي اهتمام ، لكتمان سرية العمل والادارة في المكاتب ، أو للتستر على : لمنفعة من يعمل المرء . وان الأجزاء الجاهزة من المادة المسروقة ، كانت ترسل الى الشرق ، لكي يهينوا الشعوب الأخرى . كانت هذه خاتمة الأغنية ، اضافة الى تقصير وقت العمل وتقليل الأجور وتنفيذ حملات النقل والشحن القسريين . لقد أغلقت عائلة موينير محلها وأخذت الأصوات تنخفض . كما وانخفضت عيون الصبي الغريب ، وكأنه يخشى شخصياً ، ان بامكانها ان تفضح مافي قلبه ، لحدة نظرته . لقد أصبح شاحباً وهزيلاً للغاية ، الى درجة ، ان الرجل

أخذ يراقبه بتذمر ، وأعلن خوفه ، من انه قد يكون مصاباً بمرض ، قد يعدي أطفاله . ولقد كتبت موينير رسالة لنفسها ، حيث كتبت بنت عمها كوزينه في الرسالة ، ترجو الاحتفاظ بالصبي ، لأن مرض زوجها قد اشتدّ ، وهي تفضل البقاء الى جانبه لفترة ما . «انها تصنع راحتها مع الطفل» قال الرجل . بسرعة ، مدحت موينير الصبي ، وقالت بأنه يقوم بعمله خير قيام ، فهو يذهب في الساعة الرابعة من صباح كل يوم الى الأسواق ، وانه قد حصل اليوم ، على سبيل المثال ، على قطعة من لحم العجل بدون بطاقة تموينية .

في ساحة سكن عائلة موينير سكنت أيضاً شقيقتان ، كانتا سيئتي السمعة دوماً . وقد أخذتا في هذا الوقت بالذات تذهبان بلهفة الى المقهى ، وكانتا تجلسان على رُكب الخبراء الألمان . لقد شاهد الشرطي هذه الحالة ، وأخذ الأختين معه الى القسم . عربدت الأختان وأثارتا ضجة ببكائهما ، ثم سجلهما الشرطي في قائمة المشبوهات . فرح الزقاق بأجمعه كثيراً حول ذلك ، ولكن مع الأسف أصبحت الأختان بعد ذلك أكثر سوءاً ، حيث أخذ الخبراء الألمان يدخلون اليهما ويخرجون كما يروق لهم ، وكان المرء يسمع الضجيج من مطبخ موينير . وانقطع الضحك بين الزوج وضيوفه منذ فترة طويلة ، ولم يعد موينير يمدح النظام الألماني ، فمع هذا النظام ، الرقيق والجاد والدقيق تعكّر صفو حياته ، في المصنع والبيت ، وشمل هذا التفكير أفراحه الصغيرة والكبيرة ، رفاهه وكرامته ، هدوءه وغذاءه وهواءه .

ذات يوم وجد الزوج نفسه وحيداً مع زوجته . وبعد صمت طويل ، انطلقت من أعماقه صرخة «لديهم السلطة ، فماذا يريدون ؟ كم هو قوي هذا الشيطان ، حبذا لو كان في هذا العالم واحد فقط ، ان يكون أقوى منه ! ولكننا لا حول لنا ولا قوة . نفتح أفواهنا ، فيضربوننا حتى الموت . لكن الالماني ، الذي حدثتك عنه صديقتك انيته ذات

مرة ، من المحتمل انك نسيته ، أما أنا فلا . انه قد جازف بشيء ما على أية حال . وابنه ، له جلّ احترامي ، يمكن لابنة عمتك كوزينه ان تتصرف بسوء مع طفلها . فان ذلك لن يدفنني . ان ابن هذا الالماني ، هذا الابن ، أنا مستعد لاستقباله ، انه يستطيع أن يدفنني . سأحافظ عليه أكثر من أطفالي ، وسأغذيه بصورة أفضل . ان تدع مثل هذا الصبي يسكن عندك ، وهؤلاء اللصوص يروحون ويأتون ، ولا يشعرون بما أتجرأ عليه ، ولا يعرفون من أنا ، ومن أخفيته . سأستقبل مثل هذا الصبي بذراعين مفتوحين » . أدارت الزوجة نفسها الى جانب وقالت : « لقد سبق لك أن استقبلته » .

ملاحظة : لقد سمعت هذه القصة من (انيته) في الفندق الذي عادت للعمل فيه .

في عالم مظلم

ستيفان هيرملين

ستيفان هيرملين :

ولد ستيفان هيرملين في مدينة كيمنتس (مدينة كارل ماركس في جمهورية المانيا الديمقراطية سابقاً) في عام ١٩١٥ وقضى عهد شبابه في برلين وساهم بنشاط في حركة المقاومة الالمانية ضد الحكم الهتلري الفاشي وهاجر من المانيا الى انكلترا وفرنسا وسويسرا وبلدان أخرى هرباً من ملاحقة النازيين له . وعاد الى المانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، إذ قضى مدة من الزمن في مدينة فرانكفورت في غرب المانيا . وانتقل بعدها الى برلين الشرقية في عام ١٩٤٧ . ساهم مساهمة فعالة في حركة التغيير الديمقراطي في عام ١٩٨٩ في صفوف الكتاب والمثقفين الالمان في (المانيا الديمقراطية) ، ولايزال يعيش في برلين حتى الآن . يعد ستيفان هيرملين من أبرز الروائيين والكتاب الألمان في أعقاب الحرب العالمية الثانية وصدرت له مؤلفات روائية وقصصية ودراسات نقدية ومنها «الضباط يورك من فارتنبورغ - ١٩٤٦» و «رسام في باريس - ١٩٤٧» و «زمن الأشياء المشتركة - ١٩٤٩» و «الصف الأول» ، و «قصائد وقصص - ١٩٦٥» و «ضوء المساء - ١٩٧٩» .

تعرفت على هيرمان في صيف عام ١٩٣٣ ، والرجل الذي عرّف أحدنا على الآخر حينذاك كان قد رحل . الوقت لا يزال نهاراً في الخارج ، ومن خلال الشباك المشرع الأبواب كانت الريح تهب . جلسنا ، وكل منا يحمل كأس البيرة ، حول منضدة تحت مذياع كان يبث موسيقى مسيرة عسكرية . حدث ذلك في حانة «فريدناور» الصغيرة ، التي كانت في تلك الساعة المبكرة خالية من الزبائن ، وكان النادل يغسل الأقداح على البار بخمول ، وثمة حاجز صاخب يفصل بين حديثنا وبينه .

أناس مجهولون بعثوا هيرمان ذات يوم اليّ ، وللمجموعة السرية التي كنت أقودها ، وأصبح هو بدوره القائد الجديد للمجموعة . منذ ذلك الحين أصبحنا غالباً ما نلتقي ، وفي الواقع أسبوعياً ، فقد كان هيرمان يختفي مدة قصيرة ، توقعته خلالها يقوم بأعمال جريئة وصعبة . كنت أنتظر على أحر من الجمر بطاقة البريد التي اتفقنا على نصها مسبقاً ، لأستطيع منها أن أحدد مكان وموعد لقائنا سواء في حديقة الحيوانات أم في شارع بوتسدام أم في ميدان (ألكسندر - بلاتس) . لقد ذكر هيرمان في أثناء حديثه مرة أو مرتين ، امستردام وباريس ومدناً لم أكن أعرفها ، وكانت أسماؤها تثير أنغاماً فانتازية في

ذهني . ،كما جرت العادة فلم أكن أطرح الأسئلة عليه مطلقاً ، أسئلة تتعلق بشخصه أو نشاطاته أو رحلاته . عندما لم يكن أي حادث أو حالة ما غامضاً بالنسبة الي . فكان يتأمل برهة ، وفي أثناء ذلك كانت استدارة رأسه الجانبية ، بشعره الغامق الطويل ، تظهر نظرته المشتتة ، ولكنه كان يفعل ذلك فقط ، لأنه كان يروم التركيز على شيء رائع ، منزوٍ ، لم يكن أحد سواه يستطيع رؤيته . كان يقدم توضيحاته هامساً مسرعاً ، ومن ثم يعود صوته متردداً ، ولكنه واضح المعالم ، لأن هذه التوضيحات تحمل زخماً من المفاجآت المرتبطة بحقائق مجهولة بالنسبة الي . لقد أحببت هيرمان وأعجبت به ، كان أكبر مني سناً ببضع سنين ، ولكنه كان أكثر نضجاً وهدوءاً ومعرفة مني .

في الغالب كنا نلتقي دقائق معدودة فقط . ان للعمل السري تعاليمه ومعاييره ، ونادراً ماكان الوقت متوفراً لدى هيرمان . وكان سرعان ما يقول : « إذاً ، أراك بخير . . » ضاغطاً على ناظريه بمرح ثم يقفز على دراجته الهوائية مغادراً . أحياناً يستغرق لقاؤنا لحظات قصيرة فقط ، وذلك عندما يجلب لي هيرمان مواد لمجموعتي وبضعة منشورات سرية ، أو جرائد مطبوعة على ورق خفيف جداً ، أو مطبوعات أخرى مغلفة تمويهاً بأغلفة (دار نشر ريكلام) . ذات مرة ، كان مع هذه المطبوعات كتاب جديد لهاينرش مان صدر في الخارج . كنا نلتقي آنذاك وفق مواعيد في غاية الدقة ، في منتزه (شينبيرغر) أو على مقعد في حديقة الحيوانات . كانت لكل منا دراجته الهوائية وحقيبة أوراق ، وكانت حقيبتي فارغة دوماً ، إذ كنا نستبدل الحقائب ، ونفترق في الحال . أحياناً ، كان الوقت متوفراً لدى هيرمان . عند ذاك كنا نقوم بنزهات طويلة لا نهاية لها عبر شوارع وليالي برلين ، إذ نجر دراجتينا الهوائية الى جانبنا ، نتنزه من شتيغلتس حتى كورفورستندام ، ومن هناك نتجه مجدداً ، مخترقين شارلو تنبورغرشاوزي ، الى

لوستغارتن ، بل أبعد من ذلك في شمال برلين . كنا نتحدث ونتحدث . ولم يؤثر في عدم معرفتي شيئاً عن هيرمان ، عدم معرفتي عن ماضيه وعن مكان سكنه ، ولم أكن أعرف شيئاً ، فيما اذا كان الاسم الذي أناديه به ، هو اسمه الحقيقي . كان أغلب حديثنا يدور من الطبيعي حول السياسة والتحضيرات النازية للحرب ، وحول أحداث شباط النضالية في باريس وفينا ، وكذلك حول الاعتقالات والثورة المرتقبة ، التي لا يمكن تلافيها . تناقشنا عن الكتب والحفلات الموسيقية والمعارض الفنية ونزالات الملاكمة .

كنا نتحدث أحياناً عن الفتيات أيضاً وكان هيرمان قد تعرّف على صديقتي ، التي تعمل في مجموعتي أيضاً ، ولم أعرف فيما اذا كان متعلقاً باحداهن . كان يتحدث عن الفتيات بلا خجل لكن بدون مباهاة ، كما كان يطيب للشباب أحياناً الحديث بتلك الصورة التي كانت تقززني . لقد ذكر مرة أو مرتين أخته الصغرى بنبرة اعجاب فطري : «إنها فتاة حقاً» ثم عقد حاجبيه عالياً وأضاف ذات مرة الى حديثه ، بعد أن نظر اليّ نظرة جانبية مازحة : «في الواقع انكما ملائمان لبعضكما بصورة جيدة . . .» . أصبحت في وضع محرج وقلق ، لأن صوته كان ينم عن نبرة جادة . «هل تتشابهان في الواقع ؟» ، سألته لمجرد مواصلة الحديث ، أجابني : «لا أعرف . ولكنني أعتقد ذلك ، أجل . . .» . وهنا غيرنا مجرى الحديث .

كنا في عهد الشباب . شباب نظروا الى عصرهم بصورة جادة أكثر بكثير من نظرة أقرانهم الى هذا العصر . شباب أرادوا تغيير هذا العصر وأحبوه ، ولكنهم لم يدركوا ماهو مقبل عليهم : أحداث متشابكة وآلام صارخة واخفاقات وموت . كنا نناضل بقدر ما أوتينا من قوة ، ولكننا لم نكن نعرف خلال مدة طويلة ، مع من يشتبك هذا النضال .

في أواخر خريف عام ١٩٣٥ سمعت خبر اعتقال هيرمان ، وكان

ذلك قبل نصف عام من رحيلي الى الخارج . لم يكن أحد يعرف شيئاً عن ظروف اعتقاله . حدث ذلك كما يبدو من جاسوس ، ولم يعرف أحد بدقة مكان اعتقاله ، من المحتمل انه كان قابعاً في شارع برنتس ـ ألبريشت . على أية حال ، لم تحدث اعتقالات أخرى في دائرتنا ، ولم يفش هيرمان أي اسم من الأسماء ، وكان هذا الأمر حقيقة ناصعة ، ولم نكن ننتظر منه غير ذلك .

خلال السنوات اللاحقة كنت أسمع أثناء أحلامي أحياناً صوته المتغير بسرعة ، أو كنت أشاهده أحياناً في بلدان ومدن مختلفة ومجهولة الهوية ، أو تحت وابل قنابل الطائرات ، أو ثكنة أحد المعسكرات . كانت معالم وجهه غير واضحة ، ويزداد عدم الوضوح هذا باستمرار ، لكنه كان بالنسبة الي معروفاً دوماً . كان وجهه طفولياً في حالة تأمل ، أو بائساً حزيناً وميتاً .

بعد مضي مدة قصيرة على انتهاء الحرب ، إثر عودتي ، زرت في برلين المهدمة معرض الوثائق والصور الفوتوغرافية لنضال حركة المقاومة الالمانية . وعلى أحد الجدران شاهدت فجأة وجه هيرمان . لقد برز من ضباب صورة فوتوغرافية مكبرة ، ومن مخيلتي في الوقت ذاته . وتحت الصورة ثمة ملاحظة تقول ، بان هيرمان قد رموه بالرصاص في مقلع بوخنفالد في عام ١٩٤٠ .

آنذاك كان من المؤكد بالنسبة اليّ ، ان أكتب عنه شيئاً ما . كانت ابتسامته في الصورة الفوتوغرافية غير الواضحة كأنها تصونه من الهلاك تماماً . وما أكثر أولئك الذين عرفوه ، كانوا على قيد الحياة . . . وكم من هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة ، كانوا يفكرون به . . . لقد عرفته ، ولو فترة قصيرة ، ولكن كان من واجبي أن أتحدث عنه . ان ما حدث له لم يكن واضحاً بالنسبة الي . ولم يكن كشف أسرار هذه القضية ملحاً ، ولكنها بقيت واضحة المعالم في

ذهني ، وكانت تدور في ذاكرتي بين آونة وأخرى . لقد استفسرت عن هيرمان أيضاً في أثناء بحثي عن مصير أصدقاء آخرين ، ولكن بالمناسبة ، لم أنل سوى حظ ضئيل في ذلك . ان ما عرفته من الذين أنقذوا من المعسكر - كانوا اثنين أو ثلاثة من الذين تذكروه - كان أشبه بظل .

لقد بدأ الموضوع يصبح ملحاً أكثر فأكثر ، وذلك عندما أردت أن أكتب كتاباً صغيراً عن أناس من جيلي كافحوا ضد هتلر ، وسقطوا في هذا الميدان . ولقد اخترت آنذاك بلورتارس ، ثم قرأت ليفيوس وسويتوت أول مرة ، بعد ان كنت قد قرأت شيئاً عنهما في المدرسة . كان هنالك شيء ما شاخصاً أمام عيني ، يكمن في التوجه على هدى قصص هذين المؤرخين . لقد تخلوا عن الأسلوب المنبري والاسهاب الواسع إكراماً لعظمة الموضوع . وضعت قائمة أسماء كان من بينها هيرمان أيضاً .

أردت أن أجد امكان الاتصال مع بعض من ذويه . ومن محصلة استكشافي وبحثي استنتجت ، بأن أمه ماتت خلال الحرب في برلين ، وأخته ، تلك الأخت التي حدثني عنها أحياناً باجلال وبروح صميمية ، موجودة في الخارج . لقد انتقلت قبل عامين من برلين الى لندن ، كونها زوجة ضابط بريطاني ، وتدعى الآن السيدة يونغ ، وحصلت على عنوانها .

شرحت قضيتي في رسالة شاملة . كتبت أن الصورة التي أقصد تقديمها عن هيرمان ، يجب أن تكون لها خلفية بارزة ، مثل لوحة جدارية ، وانني بحاجة الى كثير مما يتعلق بعهد طفولة هيرمان وشبابه ، أي المرحلة الكاملة لحياته التي قضاها قبل تعارفنا . وكتبت ، بأنني أرجو السماح لي بأخذ فكرة من خلال الرسائل والوثقائق ان وجدت ، وآمل الا يكون اسمي مجهولاً عندها ، وذلك بفضل الصداقة

التي ربطتني بأخيها . لقد اختتمت الرسالة قائلاً : «إن هذه الصداقة تستحق بالتأكيد أن أتوقع ، بأنكِ ستساعدينني في انجاز خطتي » .

لم يتأخر الجواب طويلاً . كان اسمي قد واجهته كاتبة الرسالة هنا وهناك ، وأنها لا تزال تتذكر بصورة جيدة ، تلك الحرارة التي كانت تطغى على أخيها عندما كان يتحدث عني ، ومع ذلك ، فانها لا تعطي التذكار المتوفر لديها بسهولة لصعوبة الاستنساخ ، وبايجاز ، فانها تجد أن أفضل شيء ، هو ان يتحدث المرء في لندن شخصياً عن هذه القضية ، خاصة وان سفرة الى برلين بالنسبة لها خلال فترة قصيرة مقبلة غير واردة . كان هنالك رنين توجّس باطني لا يمكن تجاهله ينطلق من هذه الرسالة . «لن يكون هذا الأمر سهلاً اليّ» هذا ما فكرت به .

كان عليّ السفر الى لندن بعد مضي ربع عام على هذا الاتصال ، لأسباب مختلفة . أخبرت السيدة يونغ عن زيارتي بوقت مبكر . لم أتوجه الى هذه المدينة ، لندن ، منذ سنوات ماقبل الحرب الأخيرة ، هذه المدينةالتي كانت تربطني بها بعض الأشياء ، المدينة التي كانت معروفة بالنسبة اليّ بصورة جيدة من خلال زيارات عديدة ، ولكنها كانت غير آمنة ، مثل تلك القريبة ، التي يحبها المرء بتوجّس وبرهبة في طفولته .

انتقلت من محطة القطار الى فندق صغير في كينسنغتون . لقد انهيت القضية التي كانت تشكل المناسبة الأساسية لسفرتي . وفي صباح اليوم التالي خابرت السيدة يونغ . قال صوت : «أنا شخصياً ، تفضل ماتريد ؟»

صمتّ مندهشاً ، ولكن الصوت تواصل «اعذرني ، طبعاً أنا أعرف من أنت ، وماذا تريد ، غالباً ما فكرت بتأمل برسالتك» . قلت : «من المحتمل ، انه يمكننا . . .» ولكن الصوت قاطعني قائلاً ببطء : «غالباً ماحدثني هيرمان عنك . أو أكثر من ذلك ، لم يحدثني غالباً قط ، لأنني نادراً ما أراه ، وأمي وأنا نادراً ما كنا نراه ، ولم نكن نعرف

بالضبط ما كان يفعل . لم يذكر اسمك مطلقاً ، ولكنه تحدث عن صديق معين ، وعندما كتبت لي ، أدركت ، بأنك كنت ذلك الصديق » .

« أجل » قلت لها « كنت أنا ذلك الصديق »

كان صوتها يسرع أحياناً ، وأحياناً كانت مترددة . لاحظت بعد لحظات ، بأنني في كل مرة عندما كانت تتحدث ، أكتم أنفاسي ، من أجل ان أنصت الى هذا الصوت ، لأجد فيه صوتاً آخر ، أكثر عمقاً ورسوخاً بطبيعة الحال ، ذلك الصوت الذي قال ذات مرة «في الواقع انكما ملائمان لبعضكما بصورة جيدة . . . » .

قلت : « أود متلهفاً أن أتحدث معك عن هيرمان » . قالت : « يا إلهي ، كم مضى من الوقت على ذلك ؟ هيرمان ، أنت يا إلهي العزيز ! أخي الأكبر الذي لم يمزق دماغه من أجلنا ، بل فضل تغيير العالم . ثم حدثت المأساة التي كان بامكان المرء أن يتنبأ بها » .

قلت : « لقد فكر بك أيضاً . فكر بك مباشرة . فهو . . . » .

قاطعني الصوت « أعرف ماذا تعني . فمنذ ذلك الوقت عرف المرء أشياء كثيرة لم يكن يعرفها سابقاً » . هنا قلت لها « لعل بامكاننا أن نلتقي يا سيدة يونغ . سأكون مسروراً لو تسمحين لي بالمجيء اليكم » . أزيز في السماعة ، وبعد لحظات قالت : « من المؤسف ان هذا الأمر غير ممكن الآن فأنا منشغلة طوال اليوم » قلت لها : « قد يكون الغد مناسباً لك بصورة أفضل ، أو بعد غد » « لكنك عنيد يا عزيزي حقاً » قال الصوت بدهشة ساخرة . أحسست كأنني أرتعش ، لانه كان صوت هيرمان ، هذا الذي التقطته الآن ، ولكنه أيضاً صوت امرأة ، اخته ، التي كانت تشبهه ، لقد مدحها أمامي كأنه يراها أمامه من أعماق عينيه وهو بقربي . « لماذا هذه العجلة ؟ لم ينبغي ان نعيد سائر هذه الأشياء في ضوء النهار ؟ ينبغي على المرء ان يترك الأموات في هدوئهم . لقد عانينا جميعاً آنذاك بما فيه الكفاية » . قلت بمرارة :

«سأجيء اليكِ حينما تريدين . غداً أو بعد غد ، أو فيما بعد . ان تأشيرة اقامتي سارية المفعول لمدة اسبوعين» . «أرى ان المرء لا يتخلص منك بسهولة» حاول الصوت ان يكون مرحاً ، لكنني سمعت فيه الغضب فقط . «استمع . لا يمكن أن يتم الأمر في بيتي . من الأفضل ان نلتقي في المدينة ، في الساعة الثامنة من مساء اليوم» . لقد ذكرت لي اسم مطعم في سوهو كنت أعرفه . «سأكون هناك في الثامنة» قلت لها«ستجدينني وعلى منضدتي ستكون الـ (فاينَنشل تايمز) . وكما أتوقع ، فان الناس لن يأتوا الى هذا المطعم حاملين معهم هذه الجريدة بالذات» . ضحكت طويلاً وأغلقت الهاتف .

قضيت الوقت بأفضل ما يمكن . قبلت دعوة صديق في نادي (سيغل) وسرت متهادياً في (ألنبي) لكي أشاهد مجدداً ، من كسب هناك ومتى ، وقرأت في (هايد بارك) مجموعة من الجرائد ، وأخيراً وجدت نفسي في المطعم في الثامنة إلاّ عشر دقائق . كان المطعم مملوءاً نوعاً ما ، وأخبرت النادل بانني أنتظر سيدة ، شربت كأس (كمباري) وكنت أراقب الباب . أصبح الوقت يقارب الثامنة والنصف عندما تقدم النادل الى منضدتي وأخبرني ، بانه بالتأكيد غير مخطئ ، وأنني الشخص المقصود حقاً ، الذي تنتظره سيدة على خط الهاتف . «رجاء من هنا ، وهناك في الجانب تجد المقصورة» .

«ان من المزعج حقاً بالنسبة اليّ» قال الصوت «ولكنني أخشى انني لا أستطيع المجيء» . «أنتظر بسرور مدة» أجبت . «لقد تأملت الأمر مع نفسي» قالت «لا أود المجيء ، فأنا لا أحتمل الانفعالات مطلقاً . كان ذلك قد حدث منذ وقت طويل ، فما الفائدة . . .» . قلت لها : «أنا مدين له بهذا الأمر . ألا تفهمين ذلك ؟» . قال الصوت : «أنا أفهمك عموماً ، لكنني أشك ، فيما اذا كنت أنت تفهمني . لقد تغيرت حياتي ، انها الآن مختلفة تماماً ، وأنا مسرورة لانها هكذا . اذا

كتبت عن هيرمان وصدر كتابك هناك ، فانه يمكن ان يسبب لي أشياء غير مرغوب فيها » . لم يعد في الصوت الآن أي تشابه على الاطلاق مع أي صوت آخر . جاء من بعد رهيب ، وانقطع فجأة .

قلت : «أعتقد أنك تصنعين هموماً لا ضرورة لها تماماً . من ينبغي ، بل من يستطيع ان يقيم بين أمركِ وبين أمر شخص يدعى هيرمان أية علاقة ، لاسيما عندما لا تريدين اقامة مثل هذه العلاقة ؟ » . قال الصوت : «هنالك مجموعة من الناس ، من الذين يتطفلون على قضايا غريبة عنهم بحماسة . ألا تعرف ذلك ؟ فهنا يعرف كثيرون بانني ألمانية جئت من برلين ، ويعرفون اسم عائلتي الالماني » .

لقد تصاعد في أعماقي احساس أصم وميت . قلت : «لا يمكن أن تكوني جادة فيما تقولين . لقد قدمت الى لندن بسبب هيرمان ، بالتأكيد ليس بسببه فقط ، ولكن قبل كل شيء من أجله » . «يؤسفني ذلك حقاً » قال الصوت «يؤسفني ذلك صراحة . أنا أكن لك ارتياحاً على الرغم من انك من اولئك الذين ينبشون باستمرار أشياء ماضية ، ولا يدعون العالم في هدوئه » . «أي عالم تعنين ؟ » سألتها وأضفت «كان من الممكن لمسار العالم ان يكون أقل هدوءاً وأقل عقلانية ، فيما لو كان الأمر بيد ناس مثل هيرمان ، ولو كانت بيدهم قليل من شؤون هذا الأمر . لكنهم اغتالوه » .

قالت السيدة يونغ : «لا أود أن أتخاصم معك ، ولا أود أيضاً أن أعطيك عهداً . لكنك لا تستطيع أن تتكيء عليّ » .

«انتظري» قلت لها «انتظري . تأملي الموضوع ثانية . . . »

قالت : «انها كلمتي الأخيرة على أية حال ، هنالك أمر آخر لم أكن أود أن أخبرك عنه في الواقع . من المحتمل ، وانه من الأفضل ، اذا عرفته : عندما تم اعتقاله ، لم يعد هيرمان يؤمن بتلك الأمور » .

« ماهي تلك الأمور التي لم يعد يؤمن بها ؟ » سألتها ، وشعرت في الوقت ذاته بموجة برد تجتاحني . قال الصوت : « لم يعد يؤمن بتلك الأمور ، بتلك الأفكار ، أفكاركم . انه لم يكن مؤمناً بها ككل ، ولم يعد يؤمن بان هذا الأمر كان نافعاً . لقد رأيته مرة ثانية أثناء الاعتقال ، قبل أن ينقلوه الى بوخنفالد ، لقد ذكر لي ذلك شخصياً » . « أنتِ تكذبين » قلت لها « لقد قمتِ الان باغتياله مرة ثانية ، ولكنك لا تتمكنين من انجاز ذلك » . قالت : « لا تكن واعظاً . تصبح على خير » .

انقطع الخط ، ودوت وشوشة ، وبدأ الف صوت غامض يهمس . وعندما فتحت باب مقصورة الهاتف تعثرت . جئت الى مائدتي وجلست ، ودارت في رأسي آلاف الأفكار المتضاربة ، أو لا واحد منها أيضاً . طلبت (كمباري) آخر . وعندما جاء النادل به ، قال : « أعتقد أن السيدة تود محادثتك ثانية » . عدت مسرعاً الى المقصورة .

قال الصوت : « لا أود حقاً أن نفترق بهذا الأسلوب الجاف . انت مثالي ولا يمكن أن تدرك ، بان عامة الناس يحاولون تنظيم حياتهم بتلك الصورة التي يتطلبها الزمن ، فأرجو ألا تغضب مني . . . » . أجبتها « سبق ان قلت انك قد اغتلته ثانية . لقد بالغت حقاً بعض الشيء في حديثي . لكنكِ قد وشيت به انذاك » . عادت الهمسات ثانية على الخط ، وساد هدوء بيننا ، هدوء صامت وحاد . ثم قالت السيدة يونغ : « نعم » . ومرت فترة هدوء ثانية ، ثم قال الصوت « ماذا تعرف اذن . لاشيء تعرفه بمثاليتك الغبية هذه . لقد كنت أصغر سناً من هيرمان بست سنوات ، ولكنني كنت واعية تماماً لاستطيع أن أدرك ما كان يفعله ، والى أين سيقوده هذا العمل . ما أردت موته ، أين يحلّق تفكيرك لقد كان أخي حقاً . كان ينبغي له فقط أن يعاقب ليتعلم بان على المرء ان ينظر بعين الاعتبار الى عائلته . لقد تحدثوا آنذاك عن صيانة النفس ، وانه ينبغي على المعتقلين ان يعيدوا تفكيرهم بانفسهم ، وان يعودوا

ليكيفوا أنفسهم في مجتمع جديد . لم أكن أرغب في فصلي من الدراسة بسببه ، وما أردت أن ينغص الآخرون حياتي . ولم تعرف والدتي حتى وفاتها شيئاً عن هذا الأمر ، ولم يحس هو نفسه أيضاً بشيء ما . . . » .

انتزعت السماعة من اذني ببطء وتركتها متدلية ورجعت بهدوء وتثاقل من المقصورة ، ثم دفعت حسابي وتركت المطعم .

سرت عبر الشوارع كأنني نائم . أحياناً تستيقظ في أعماقي فكرة : ربما حامت الشكوك في ذهن هيرمان حولي . انتبهت هنا وهناك ، وتعرفت على شارع ، أو على ساحة ، في أثناء حالتي المضببه الوعي هذه .

من المنتدى الليلي (ليونز كورنر هاوس) تدفقت أنغام الجاز . سيارات كبيرة واقفة في الظلام أمام أبواب (بارك لين) .

وفي مقاهي (اسيريسو) وقف شباب يضحكون ويغنون . ووسط هذه الانارة الضعيفة قال صوت «لا تنسونا يا سيدي» . انحنيت الى الأمام وشاهدت رجلاً واقفاً هنا بلا حراك . كان يحمل لافتة صغيرة أمام صدره . تقدمت عن قرب وتمكنت أن أقرأ النص الآن : يعيش الناس في عالم مظلم . نحن بأمس الحاجة الى مساعدتكم . وتحت هذا النص وبحروف صغيرة قرأت : المدرسة الملكية للعميان ، ليذرهيد . بحثت في جيبي عن بضعة شلنات .

خيمت فوق المدينة دوامة من الغبار والضوء والضجيج . وفي ليل المساء سطعت انعكاسات أشعة شوارع بعيدة ، ودوّى من الجو ضجيج محركات نفاثة أحسست أن هناك ألماً عاصفاً في الطريق ، يتحرك من مكان ما بعيد جداً ، ليجرفني معه . مازال أمامه مسافة ووقت طويلان ، لكنني كنت هادئاً ، سيصل اليّ على أية حال .

دقات الطبول

يورغن فيلبروك

يورغن فيلبروك

ولد الأديب الألماني يورغن فيلبروك في مدينة بريمن عام ١٩٤٩ ويعيش حالياً في برلين . كاتب متفرغ ، صدرت له مجموعة قصص تحت عنوان «آفاق الجذور» في عام ١٩٨٣ . ألّف أيضاً مجموعة من التمثيليات الاذاعية .

دقات الطبول . في كل ليلة هذه الدقات . لا أعرف ماهي تلك الأخبار التي ترسلها الى العالم الخارجي ، لكنني أعرف فقط ، انها تسرق نومي ، نومي وحيداً وسط صداها الخارجي ، بعيداً عن جوهرها . أجل ، وفي ضوء ذلك ، تراني أحب الفن وأحتقر الاعلان : أو انني أتحاشى دقات الطبول ؟ ترى ، هل هي أشكال فن سرية ، التي أنا ، ذلك الانسان الجاهل الى حد ما ، لا يمكن أن أفهمها قط ؟ كان على المرء أن يخبرني عن كيفية مواجهة أولئك الناس البدائيين للكون من خلال وجودهم .

الهدوء يسود الوضع الآن . لكنني مع ذلك لا أستطيع النوم الآن . إن توقع دقات جديدة ، ضربات كثيرة متكررة من ضربات الطبول ، تؤرقني . هاهي ، هنا . قد عادت . أولاً اثنتان ، ثلاث دقات ، ثمة توقف حذر ، لكنها أخذت مسارها المحدّد مع الضربتين الرابعة والخامسة .

دقات الطبول . الليل وضربات طبوله . ثمة ايقاعات الـ «بُمْ -بُمْ» الكئيبة للطبول الكبيرة ، ودمدمة خافتة وخفيفة للطبول الصغيرة . من المحتمل ، انني سأتعلم محبة هذه الأصوات . وهذا ما أراه ممكناً . ان هذا الأمر يبدو وكأنه موسيقى احتفالية لطقوس دينية . ها أنا أتأمل :

تـرى ، هـل يسـري ذلك على سـائـر ألوان المـوسيقى التـي تـحمـل هذا الاسم ؟

الهدوء يخيّم مجدداً .

أين توقفت ؟ أجل ، النوم يهرب منّي ، منذ ان تسلّمت هذه الرسالة ، هذه الحادثة الجديرة بالذكر ، القادمة من الوطن ، من عالم غارق . ان زوجتي تريد الطلاق . ستلد طفلاً . كلا ، انه ليس طفلي . فأنا موجود هنا ، في هذه الأحراش ، منذ قرابة العام . انها حوالي أربعمائة ليلة مشحونة بدقات الطبول السريعة أحياناً والمتلكئة أحياناً أُخر . لكن مما يستحق الذكر ، ان هذه الدقات لم تكن في بادئ الأمر تعني شيئاً بالنسبة لي ، بل على العكس من ذلك ، فانني أحسّ فيها لوناً غريباً خاصاً من الوان الاثارة . لكنني فقط ، منذ استلامي هذه الرسالة ، قبل بضعة أيام ، بدأت أحسّ بانها تسلب نومي .

هاهي الدقات تعود مجدداً ، ويجب على المرء أن يتحدث عنها فقط .

* * *

دقات الطبول . تعود ايقاعات الـ «بُمْ - بُمْ» الكنيبة للطبول الكبيرة ، والدمدمة الخفيفة للطبول الصغيرة . اجلس في محطة البحث العلمي المنتصبة وسط الأحراش والمشيّدة من القوالب الجاهزة ، وأعمل موظفاً ، أكتب ما ضاع مني . لكنني لست معتاداً على مثل هذه الأرقام . ان حسابات مبالغ كبيرة مجهولة لم تكن في السابق تشكّل مواضع قوتي مطلقاً . اني أصغي الى دقات الطبول ، وأحاول أن أحلّل قواعدها النحوية ، ترى ، هل تُغرِب جملها الرئيسية عن

صمتها ، صمت دقات الطبول ؟ بين آونة وأخرى تنطلق صرخة كائن ، وأصبحت شيئاً فشيئاً أدرك بانها الوجه الآخر للأنا ، وهي في أعماق الهدوء المرتبك . هل أنا هذا الذي يتحدث هنا ؟ إن أقلّ أصواتي تبدو لي مألوفة .

هذا الهدوء المزمجر !

* * *

عندما عزمت على الحديث الآن ، عبر حوار أخرس مع نفسي ، فذلك ليس من أجل التهرب من الهدوء ، بل لكي أقيسه بكلمات . الهدوء – لا أعني بذلك مجرد غياب الأصوات ، غياب دقات الطبول . الهدوء هو ثقب في الكون . ولا ينبغي على المرء أن يتوقع شرحاً لذلك الذي لا أفهمه أنا شخصياً ، كيف ينبغي لي أن أوضحه ؟ أنا لا أفهم الثقب الموجود في الكون ، ولا أفهم معنى الكون . لنضيف الى مفاهيم أمور الحياة اليومية المألوفة طريق ملاذنا ، كما اعتدنا أن نفعل ذلك دوماً . لنأخذ لجوءنا الى ما يتعلق بنشرة الأنواء الجوية ، أو فيما يتعلق بوثائق ملاحظاتنا ، المنصوص فيها : روفوس وكاميرا . لكننا سنجد أنفسنا هاهنا مجدداً في موقع أقل أمناً . روفوس وكاميرا ، شمبانزيان في عهدتنا . انهما حيوانان للتجارب المختبرية . مشاريع العلم . أشعر بأواصر القربى المتنامية دوماً معهما . كلا ، ليست من وجهة النظر الدارونية . انها أواصر من نوع التضامن الوجودي . انهما في قفص ، وأنا في قفص . لقد استسلما لنفسيهما ولنا ، وأنا . . . هاهي دقات الطبول !

أردت أن أتحدث عن نفسي وزوجتي ، عن «حياتنا الزوجية» . لكنني لن أفعل ذلك . مستحيل ، فمن هذا التشابك القائم بين سوء

التفاهم ، والاعتراف المتبادل بانعدام الاخلاص ، من هذه الحالة المتوسطة السخونة لا يمكن أن تندلع شرارة . قد يظن المرء : انني متعلق بزوجتي . وان بؤسي بالنسبة لي ثمين جداً حد الصمت . أنا لا أعرف أيضاً ما إذا كانت تتوقع منّي جواباً على سؤال لم تطرحه هي بنفسها . سأصمت ، ليس لأنني أعتقد ، انه من خلال ذلك يمكن اختراق بؤرة الهدوء بصورة أفضل ، بل لأن صمتي هو معيار ، أُلقيه على ثرثرة السعداء . ان زوجتي تبدو سعيدة ، لكنها تكتم أفكارها بصورة رديئة . على أية حال ، ليس المهم ، أن أوافق على الطلاق أم لا . لأن ذلك يتخطى جوهر القضية . ان دقات الطبول تعني ذلك بوضوح تام . أجل ، لقد بدأت أفهمها .

* * *

ذهبت اليوم الى القرية وكنت عند الأهالي المحليين . الممرض يقود دراجة بخارية ، وفي حوزته دورق الأعشاب الطبية على حمّالة الأمتعة . ان مهارته الطبية قد تهرأت خلال معالجة الجروح ورعاية المرضى ، انها من بركات التقدم . لقد نقلت أليزا بالدراجة البخارية الى البيت آنذاك ، بعد أول لقاء لنا ، عندما كنت في الفصل الدراسي الخامس من دراستي لعلم الحيوان التي بدأتها بوقت متأخر . لا أود أن أتذكر . لكنها تقتحمني ، تلك الذكريات . انها تبدو لي في هذا اليوم وكأنها كتب متجوّلة . بين أونة وأخرى ، عندما كنا نستدير حول منعطف حاد في وضع مائل ، كنت أسمع اليزا خلفي ، على المقعد ، وهي تتنفس بعمق أيضاً . كانت ذراعاها تطوقان جسدي ، وكفّاها متشابكتين على بطني . كانت ترتدي سروالاً – ضد رغبة والديها – بسبب هذه الرحلات المشتركة بالدراجات البخارية عبر النهار الملّون

بالوردي . ان أول حادث سقوط مشترك لنا ، الذي لم يكن متوقعاً ، قد وثّق علاقتنا . هنالك مثل هذه الحوادث لا نهاية لها .

* * *

مطبوعات خاصة ، أخبار جامعية ، استفسارات من طلبة الدراسات العليا ، وأوامر العمل . لا يعرف المرء ما يرسلونه له وسط الأحراش . . من حُسن الحظ ، ان العقوبات لم تصلنا . هنا ، أصدرت أحدث مطبوع لي ـ تحت تأثير ثلاثة لترات من النبيذ – بعنوان «مكابدات النمو من خلال التجويع» . مطبوع موجز ، دقيق الصياغة ، بأسلوب لا أكاديمي ، لكنه لا يتوافق مع خبرتي الشخصية . لقد واصلت الحياة وأنا أعاني من الحرمان والجوع – باطنياً . لكن عندما يتوافق الحرمان الباطني والهوائي ، فانني أكون قد توقفت عن مواصلة النمو قبل أشهر من ذلك تقريباً .

هاهي دقات الطبول تعود مجدداً . هذه الطبول اللعينة ، انها تطرق الذكريات ، وتبعدها . انها تطرق ثقوباً في الليل ، وهي تنخر حياتي . أنا أجلس في محطة بحث علمي مشيّدة من حاويات منصوبة بين الأجهزة والمعدات الهندسية . أجهزة تسجيل زلازل الفناء ذات الحساسية العالية ، وأنا أتأرجح مع مصيبتي الوهمية في مواجهتها . لا يمكن التفكير بأية موسيقى أكثر توافقاً مع هذه الطبول فقط . باعتبارها آلات ايقاعية ملحقة بالكرة الأرضية ، وبالأرض التي نقف عليها ، والتي نادراً ما نحلّق فوقها بما فيه الكفاية ، الطبول فقط ، كما أقول ، يجوز لها أن تدعو الديدان للرقص . أنا دودة ، أكوّر نفسي أحياناً على هيئة علامة الاستفهام ، هذه التي ترسم رموزاً مجزية ومناسبة لفكر الباحثين . لكنها تحوي – كجزء من تكوينها – نقطة ، كنت

أخشى لحد الآن أن أصنع مثيلاً لها .وفي ضوء ذلك ، أنا لست دودة أرضية تدّق لها الطبول فحسب ، بل جبان تتراجع أمامه السماء . انني أدع الكلمة تتصرّف عوضاً عني في هجوم ، لست كفؤاً له في تصرفي . ينبغي الاعتراف ، بأن الطعام البائس يساهم أيضاً في هذا الهجوم ، وهو من جانبه يقوم أيضاً بهجوم كامل .

*　　*　　*

لا أعرف كيف أحدّد مكاني في اطار هذا النسيج النغمي . ضربات طبول حادة المعالم ، وأخرى تتناسل على الحافات . انها تتطلب فناً أخر ، ليس كالذي أتقنه ، فهو نوع من الملاحة الميتافيزيقية بامكانه أن يحدّد مكاني الآني في هذا الكون . أعرف فقط أنني أجلس مرغماً في محطة البحوث المشيّدة من الواح معدنية مربعة جاهزة وسط الأحراش ، ومتأرجحاً بين خطي الضائع في هذا الكون . خط ؟ انه يدور في دوامة اشاعته الذاتية . ماذا ينبغي بحثه ؟ لا أدري ماهو . حسناً ، قد يكون هذا الأمر نوعاً من المداعبة . من الطبيعي أنني أدرك مهمتي . لكن المهمات لها خصوصيات إغناء مادة البحث بثمار المعرفة نوعاً وكماً . ومن الطبيعي أنني أحسّ بعد انهاءالبحث ، ما ينبغي مواصلة بحثه ، كما أحسّ أيضاً ، بأن المرء ينجذب الى بحثه بعد أن يؤديه في مجال بحثه ، وهكذا تتواصل في ذاته أفكار البحث .

دقات الطبول . ليلة مثقوبة . ثمة صيحة مخلوق تنطلق بين آونة وأخرى عبر الصمت المطبق ، مخترقة هذه الدقات . ها أنا أجلس في ظل اضاءة خافتة تتيح لكيان الظلام مكاناً كافياً للفعل وللتراجع ، مثلما يتوقد خيالي تحت تأثير النبيذ ، أجلس على كرسي مضفور من النسيج وجريد النخل المدبوغ ، كرسي يثير في أعماقي ، عبر أنينه

وتأوهاته أحياناً ، الاحساس بانه يعيش ، يعيش تحتي ، تحت ثقلي . تعتقد اليزا على سبيل المثال ، انه لم يعد ممكناً وجود امكانية مثل هذا الاحساس . انها مقارنة فاحشة . أنت تسقطني في غيابك - هذا ما كتبته في واحدة من رسائلها الأولى بعد سفري - وتبتهج متحرراً من صرخات استغاثتي . هاهو موتيف السقوط يعود مجدداً في علاقاتنا . إذن ، انها لا تعاني من وطأة ثقلي ، بل من الغرف التي أصبحت شاغرة كما يبدو ، الغرف التي لا تتيح مكاناً لأشياء أخرى كلما اكتملت حقيقة غيابي ، كما هي موجودة في الواقع . أليزا ، عندما ينبغي ان يدور الحديث عنها ، فانها تتركني في اللحظة التي تتوجّه عليها نظرات الآخرين ، وتضيئ هذه اللحظة بصيرتي ، عندما تجلعني لا أرى شيئاً . ان الباحث الأعمى ، هو ذلك الباحث الذي يصنّف ظلماته - على خلاف الديك الأعمى وحبوبه- ، ويحتفظ بها بحماس الغيرة خلف جفون مغلقة . ان هذا اللون من الحماس غير مألوف بالنسبة لي ، وهنالك لون آخر منه يقرض روحي لفترة أطول ، ويبدو انه يقدّس السقوط بدقة ، هذا اللون الذي ترتبط به غيرتي العمياء ، وهو نفسه الذي جعل اليزا تتعلق بي . انه جدليةالشيطان ، بما فيه الكفاية . أريد أن أستمتع بصمت الطبول .

في حلم زارني في الليلة الماضية ، عبرت مسرعاً غابة لا نهاية لها . كانت الأشجار محصنة برؤوس حراب لا حصر لعددها عوضاً عن وجود الأغصان . آلاف منها كانت تترصدني بصورة متواصلة مع كل خطوة من خطواتي بالتناوب . أسرعت في السير الى ان شعرت فجأة ببرودة في قدمي . نظرت الى أسفل جسمي : لم تعد لي قدماي . عدت متعذباً على أطراف مبتورة تنزف دماً ، تتغير درجات حرارتها من دقيقة لأخرى بين برودة الجليد ولهيب الفحم ،لأبحث عن قدمي . عندما توقفت مرة ، واستلقيت على الأرض مرهقاً ، تحركت شجرتان

متشابكتان ، وانفصلت احداهما عن الأخرى ، ثم دخل بينهما زوج من الأحذية . رفعت نظري فرأيت شرطياً ، أخذ يتقدم نحوي بخطوات بطيئة . ركّز نظره عليّ لفترة طويلة ، دون أن يبوح بشعوره . الى ان نظرته بمعالم كئيبة . رمى قبعته بحركة مريبة وفتح أزرار بدلته . عيناه لا تفارقانني . أحاول أن أجمع شتات نفسي ، لكن دون جدوى . أخذت أراقب ، كيف تقدم الشرطي الحارس مختاراً احدى الشجرتين ، وتسلّق أول غصن قوي منها . وعلى هذا الغصن علّق كمّ بدلة عمله ، والكمّ الأخر ربطه على هيئة مقلاع حول رقبته . كلا لا تفعل ذلك ! صرخت بصوت خافت . تردّد الرجل ، لكنه قفز من الغصن بعد ذلك . اسمع طقطقة فقرات العنق ، وكأنه انكسارغصن . تراجعت ، وأحسست بحذاء أسود غريب ، وكما يبدو سليماً ، على قدمي . حركت أصابعي ، أجل ، انها في قدمي ! نظرت الى المشنوق هناك ، حقاً ، لقد اختفت قدماه . نهضت وأخذت أركض ، أركض ، ولمدة طويلة ، دون أن أصل الى مكان ، حاصرتني رؤوس الحراب والرماح فقط ، حراب ورماح لا نهاية لها ، لا نهاية لها . . .

* * *

القرود . يبدو انها ترى امكاناتها غير المعاشة في صورها المغروزة فينا ، أكثر من أن نراها نحن فيها . ومن خلال زاوية النظر المقتصرة على (الآن) و (هنا) ، فانها تختبر فقط مواطن قوتنا الوهمية وضعفنا بمعيار العقاب والثواب تقريباً ، وكأنها تختبر مواطن قوتها وضعفها . ان الغرور يكمن في البحث العلمي هناك أيضاً ، حيث يبعدهم هذا الغرور عن البحث ، ويريد اقصاءهم عن منصّاتهم . هذا هو بالذات ما تعلمته ، عندما كنت أبذل جهدي من أجل تعليم القرود أقلّ ما

يمكن ، لأمسك تلابيب جوهرهم ، وليس جوهري . أنا اليوم أعرف ، ان ذلك مستحيل فالمرء لا يستطيع أن يرمي حجراً في الماء ويتوقع احتجاب حركة الأمواج الدائرية الشكل عن سطح الماء . أجل ، لا يستطيع المرء ، ولو لمرة واحدة ، وهو في حالة تحفظ تأملي ، ان يجلس على الساحل وينظر الى البحر ، دون أن يتوقع ، ان البحر ينظر الى أعماقنا أيضاً . هنالك مجال للاعتراض أيضاً ، خاصة في حالة ظهور نتائج معرفية في مادة البحث المنجز ، بل وفي الغالب تلك المعلومات التي لا يمكن التوصل اليها في ظروف اعتيادية مطلقاً . يجب على شروط كل تجربة أن لا تؤدي الى الخطأ والغموض ، لانها يمكن أن تؤثر فقط على نتائج المعالجات الذاتية للتجربة . هذا ما يمكن للمرء أن يقوله . من أجل ذكر مثال صغير فقط ، مثال يمكن البرهان على صحته ببساطة : هل كنا نعرف شيئاً عن أهمية بقاء المعتدي على قيد الحياة ، دون اطلاعنا على وصف كوهراد لورنس لـ «قتل الزوج» لسمكة البارش في حوض الأحياء المائية ، الذي نعته بـ «الغضب المفيد» ؟ وبما اننا الآن عند قتل الزوج ، أود أن أشير الى جان - هنري فابر وصاحبته قاتلة البشر مانتيس ، قديسة الاله . تشاع في عالم الاختصاص أحدث نتائج البحوث العلمية ، التي برهنت على ان الذكر يؤكل من قبل الانثى أثناء أو بعد الجماع في ظل ظروف تجمعهما . ووفق نصوص بعض موسوعات علوم الحشرات ، فان لدغة القفا لامحيد عنها من أجل قذف النطف ، وهذا الأمر يقع في اطار الغموض الذي يحيّر العلماء أيضاً .

لكن هذه الحالة تعلّمنا شيئاً ما أيضاً ، أجل ، انها تعلّم على المدى البعيد أن التجارب المختبرية أكثر من مجرد جهود غير مجدية لمعرفة ظواهر الطبيعة . ان هذه الحالة تفيد العاشقين والمتزوجين الى حد ما .

ها أنا أعود مجدداً الى ليزا . ومع ذلك ، يمكن ادراك غيابها عني في أثناء الصمت أكثر من وجودها متحدثة . أبدأ مع روفوس وكاميرا وانتهي باليزا . انها هذه الجدلية الشيطانية .

على أي حال أشعر بانني قريب من القرود ، أكثر من شعورها بقربها مني . أنا لا أعني ذلك من وجهة نظر التطور التاريخي . ان اكتشاف ما يسمّى ب «أحاديث القرود» قد قادني الى حالة التأمل . انها نوع من خطوط باطن الكف ، التي تتسم بها السلالات المنغولية ، كما هو الحال لدى القرود أيضاً ، حيث تخترق مساحة باطن الكف بأجمعها . ومن المحتمل ان هنالك ملحقاً لذلك في الفكر والطباع ، ومن المحتمل ، من وجهة نظري ، ان مثل هذه الأخاديد تخترق كامل وجودنا ، لكن هذا الجانب لا يشكّل سوى حدس لباحث علمي ثمل يمتلك عظام حسّ ميتافيزقي . لا أود ان أتحدث عن عظامي الأخرى . حدثني «هاخمان» ، مساعدنا من الأهالي المحليين ودليلنا في مجاهل هذه الأراضي ، قائلاً ، بان قبيلته تعبد القرود كالهة مقدسة . وهنا يكمن الفرق بين ما يسمّى بالبدائيين والحضاريين : انهم يقدسون القرود ، ونحن نقدس أنفسنا كالهة . لكننا على أية حال ، لسنا سوى الهة هَوَتْ .

صمتت دقات الطبول . ليلة الوداع تعلن عن نفسها . لا أعرف : مم الوداع ؟ مع ذلك فالاحساس له وجود ، انه موجود بصورة نادراً ما أحسست بها في سنواتي مع اليزا . ان شرارات الأيام الخوالي قد خبت ـ بصورة لاطوعية وتثير في أعماقي أشياء روحية مجهولة ـ ،ومن ثمّ لتلتقي مع البلادة الساقطة نحو الخارج ، حيث المناسبة لها مجدداً ، لتعود الى المناطق الداخلية الرديئة الاختبار ، التي عمدّت تسميتها بـ «الأطلسي» – على خلاف كاتب فرنسي توفي مؤخراً ، حيث أطلق عليها اسم «اسبانيا» – حتى الخوف ، مثل ما يحدث عند المرض أو

الجنون ، يفقد في العملية المتصاعدة للتحليل من معالمه ووزنه بصورة واضحة . واذا ما استسلم المرء في بادئ الأمر ، يبقى القلق المادة الشخصية الوحيدة . ان التفكك يبدو لي في مثل هذا الوقت الحل الأمثل . ومع ذلك سأبقى في البداية مادياً في جسدي ، وتكفيه هوية الأحوال المدنية كاحتمال وسط . تبدو لي الليلة الحالية ، التي تختفي فيها دقات الطبول ، وتصمت فيها أصوات الخنازير ، وهذا الأمر ليس صورة ، أكثر سواداً من سائر الليالي لحد الآن ، الليالي التي عشتها في هذه الأصقاع متلعثماً ومتمتماً . هاهنا تشع نقاط ضوء اصطناعية ، تنير امتداد محطتي ، محطة البحوث ، وأكثر التماعاً على بؤسي ، دون أن تنيره في أثناء ذلك . أواه ، كم أستمتع بيأس ! وأكثر من ذلك ، انني أكاد أخشى ، ان يكون هذا اليأس أملاً . علام يمكن أن يوجد الأمل فعلاً هذا ما لا أعرف قوله ، على قلة معرفتي ، بمن أودع . تبقى الآن الحكايات العتيقة محتجبة أيضاً ، تلك الحيل الفنية للكبت الخلاق . لقد اختزلت نفسها الى لا شيء ، الى كل ، بل اتسعت أكثر . وهنا ، في هذا العدم يستطيع المرء أن يرقد .

أطلقت سراح كاميرا وروفوس . أود أتيح لهما فرصة التزاوج خارج القفص أيضاً . لن أكون مبتئساً لو انهما لا يفعلان ذلك . على أية حال ، امتنع روفوس ذات مرة عن تناول طعامه طوال أربعة أيام ، مثقلاً بهموم حبه القرودي ، عندما عزلنا الحيوانين احدهما عن الآخر . . ومن أجل مراقبتهما ، قمت بترقيمهما ، ومن الطبيعي بعلامات أخرى ، تختلف عن المألوف ، لأقوم بذلك من موقع المقارنة مع الآخرين . أنا لا أحمّل نفسي أكثر من طاقتي . ولا أستطيع ان أتصور أيضاً ، أن أسمح لنفسي بالزواج مرة أخرى (داخل) قفص . بدأت أدرك : ان الوصال هو القفص .

* * *

في تلك الثلاثاء

فولفكانك بورشرت

فولفكانك بورشرت :

عن القاص والقصة :

- فولفكانك بورشرت ، كاتب الماني ولد في مدينة هامبورغ / ١٩٢١/ وتوفي في ٢٠ / ١١ / ١٩٤٧ في بازل .

- صدرت هذه القصة في مجموعته الموسومة (١٩ قصة قصيرة) بطبعتها الأولى عام ١٩٤٧ / هامبورغ .

- من أشهر مؤلفاته : مسرحية «خلف الباب» .

في كل أسبوع يوم ثلاثاء .
في السنةنصف مئة .
في الحرب أيام ثلاثاوات .

* * *

في تلك الثلاثاء :

تمرنوا في المدرسة على الحروف الكبيرة . كانت للمعلمة نظارة بعدسات سميكة خالية من الحافات . كانت سميكة على تلك الصورة ، التي تبدو العيون من خلالها خافتة للغاية . اثنتان وأربعون فتاة يجلسن أمام اللوحة السوداء وكتبن بحروف كبيرة :

كانت للعجوز فرتس كأس نحاسية . انطلقت المرأة المكتنزة بيرتا حتى باريس . ان جميع الآباء يصبحون في الحرب جندياً واحداً .

أخرجت «أولي» لسانها حد أنفها . وهنا لكزتها المعلمة . لقد كتبت كلمة «حرب» بحرف الشين . إن كلمة حرب تكتب بالباء ، مثل كلمة قرب . كم مرة كررت هذا الأمر . أخذت المعلمة دفتراً وكتبت علامة (+) خلف اسم (أولي) يجب أن تكتبي الجملة عشر مرات حتى الغد ، كتابة نظيفة هل فهمت ؟ أجل ، قالت «أولي» ، وهمست لنفسها بصمت : هذه اللعينة بنظارتها .

على ساحة المدرسة التهمت غربان الضباب بقايا الخبز المرمية أرضاً .

* * *

في تلك الثلاثاء :

ترقى الملازم ايلرز الى مرتبة آمر الوحدة .

يجب أن تخلع الشال الأحمر ، يا سيد ايلرز . ماذا يا رائد ؟

أجل ، يا ايلرز . في الثانية لم يعد هذا الأمرمحبباً . هل سأنتقل الى الفرقة الثانية ؟

أجل ، وهم لا يحبون مثل هذا الشيء . هناك ، لا تستطيع المواصلة بذلك . ان الثانية قد اعتادت على الأمور الصحيحة . ومع هذا الشال الأحمر ستجعلك الفرقة تراوح في مكانك تماماً . ان النقيب هيسه لم يحمل مثل هذا الشيء .

هل جرح هيسه ؟

كلا . لقد قدم نفسه في سجل المرضى . يحس بسوء صحته ، كما قال . لقد خارت قواه بعض الشيء منذ أن أصبح نقيباً . ان هذا السيد لم أعد أفهمه ، والا فانه كان دوماً صائب التصرف على أية حال ، يا ايلرز ، حاول أن تدبر أمرك مع الفرقة الثانية . لقد قام هيسه بتربية هؤلاء الناس تربية حسنة . وانزع الشال ، هل هذا واضح ؟

ـ هذا طبيعي أيها الرائد ، وانتبه الى أن يكون هؤلاء الناس حذرين مع السجائر . فهنا يجب على كل مدفعي حاذق أن تكون سبابته على الزناد ،وذلك عندما يرى هذه الديدان المصباحية تتخبط هنا وهناك . لقد حدثت عندنا في الأسبوع الماضي خمس اصابات في الرأس . اذاً ،انتبه بعض الشيء الى ذلك . صحيح ؟ أجل ، أيها الرائد

نـزع المـلازم ايلـرز الشـال الأحمر في أثنـاء الطريـق ، الى الـفرقة الثانية . أشعل سيجارة وصاح بصوت عال : آمر الفرقة الثانية .

* * *

في تلك الثلاثاء :

قال السيد هانزن الى الانسة سفرين :

يجب أن نـبعث مجدداً الى هيسه شيئاً ما ، يا سفـرنيشن(١) ، شيـئاً للـتدخيـن ، شيـئاً للقـضم . وقـليلاً من الأدب . زوجـاً من القـفازات ، أو ماشابه ذلك . ان الشبـاب يـواجهون في الـخارج شتـاء سيئاً عليه اللعنة . أنا أعرف ذلك . هنالك الكثير من المرضى .

هل من المحتمل ان يكون هولدرلين ، يا سيد هانزن هراء ، يا سفرينشن ، هراء . كلا ، اهدئي ، وكوني لطيفة بعض الشيء ، قد يكـون «فلهلم بوش ، أو ماشابه . لقد كان هيسه أكبر من ذلك بالنسبة لهؤلاء الناس . انه يعشق الضحك . وهذا ما تعرفينه بطبيعة الحال . يا ربي ، سفرينشن ، ان هذا الهيسه يستطيع ان يضحك حقاً!

أجل انه يستطيع ذلك ، قالت سفرين .

في ذلك الثلاثاء :

حملوا الرائد هيسه في حمالة الى صالة الاسعاف وفوق الباب كانت لافتة مكتوباً عليها :

اذا كان جنرالاً أو جندياً

فالشعر يبقى هنا

---

(١) اسم تصغير اللتحبيب ،

حلق شعر رأسه . كانت للمرض أصابع رفيعة وطويلة ، وكأنها سيقان عنكبوت . ثمة بقع حمراء عند عقبي قدميه . لقد دلكوه بشيء ما تنبعث منه رائحة صيدلية . ثم تحسست «سيقان العنكبوت» نبضه وكتبت في كتاب سميك : درجة الحرارة : ٤١,٦٠ ، النبض ١١٦ ، فاقد الوعي ، هنالك شك في اصابته بالحمى الوبائية . أغلق رجل الاسعاف الكتاب السميك . وعلى غلافه كتب : مستشفى الأوبئة العسكرية في سمولينسك ، وتحته : الف وأربع مئة سرير .

رفع الحمالون الحمالة الى أعلى ، وعلى السلم تدلى رأسه خارجاً من البطانية وأصبح يتأرجح يسرة ويمنة عند صعود درجات السلم . كانت حلاقته قصيرة . وكان يضحك على الروس . كان أحد الحمالة مصاباً بالزكام .

* * *

في تلك الثلاثاء :

قرعت السيدة هيسه جرس جارتها . وعندما فتحت الباب ، هزت الرسالة . لقد أصبح نقيباً . كتب بانه قد ترقى الى نقيب وآمر سرية . ان درجة الحرارة قد تجاوزت عندهم الأربعين درجة مئوية تحت الصفر . استغرقت الرسالة تسعة أيام . لقد كتب على أعلى مظروف الرسالة : الى سيدة النقيب هيسه .

بقيت رافعة الرسالة الى الأعلى . غير ان الجارة لم تنظر الى هناك ، بل قالت : ٤٠ درجة تحت الصفر يا لهؤلاء الشباب البؤساء ، ٤٠ درجة تحت الصفر .

* * *

في تلك الثلاثاء :

سأل رئيس هيئة الأطباء العسكرية رئيس مستشفى الأوبئة العسكرية في سمولينسك :

كم عددهم يومياً ؟

نصف دزينة

«امر مقيت» قال رئيس هيئة الأطباء العسكرية

«أجل مقيت» قال رئيس المستشفى .

وفي أثناء ذلك لم ينظر أحدهما الى الآخر .

وفي تلك الثلاثاء ،

عرضوا اوبرا الناي السحري

لقد طلت السيدة هيسة شفتيها بالأحمر .

* * *

في تلك الثلاثاء :

كتبت الممرضة اليزابيث الى والديها : «دون الايمان بالله ، لا يستطيع المرء ان يتحمل هذا الوضع . لكن عندما جاء الطبيب الأدنى درجة ، نهضت واقفة . انه محني الظهر على تلكم الصورة التي تظهره وكأنه يحمل روسيا بأجمعها عبر الصالة»

هل ينبغي ان أعطيه شيئاً ؟ سألت الممرضة .

كلا ، قال الطبيب الأدنى درجة . قال ذلك بصوت خافت ، وكأنه يخجل من نفسه .

بعد ذاك حملوا النقيب هيسه الى الخارج ، حيث كان الجو عاصفاً لماذا يعبثون دوماً على هذا المنوال . لماذا لا يستطيعون وضع الميت

على الأرض ببطء وهدوء . في كل مرة يضعونه بهوس على الأرض . هذا ما قاله أحدهم .

ثم قال جاره بصوت خافت :

متعرج هذا التصرف (زك زاك) .

ان المدفعية حادة الطباع

كان الطبيب الأدنى درجة ينتقل من سرير الى آخر ، يومياً ، ليلاً ونهاراً ، وطوال أيام متواصلة ، طوال الليالي . وكان في أثناء ذلك يسير محني الظهر . كان يحمل روسيا بأجمعها عبر الصالة في الخارج . كان حاملا المرضى يعبثان بحمالة فارغة يحملانها . انه الرقم٤ ، قال أحدهما ، وكان مزكوماً .

* * *

في تلك الثلاثاء :

كانت «اولي» جالسة مساء ترسم في دفترها بحروف كبيرة :

ان جميع الآباء يصبحون في الحرب جندياً واحداً

ان جميع الآباء يصبحون في الحرب جندياً واحداً

لقد كتبت هذه الجملة عشر مرات ، بحروف كبيرة ، وكتبت كلمة «حرب» بحرف الباء ، مثل كلمة «قرب» .

ملحمة الحمامة الثالثة

ستيفان تسفايج

ستيفان تسفايج :

ولد ستيفان تسفايج في العاصمة النمساوية فينا بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٨٨١ وفارق الحياة في بيتروبولس ، على مقربة من العاصمة البرازيلية ريودي جانيرو في ٢٣ / شباط / ١٩٤٢ .

صدرت له مجموعة من المؤلفات . ومنها روايات «حذار من الشفقة - قلوب تحترق» و «٢٤ ساعة في حياة إمرأة» و «نساء في الخريف» ومن أهم كتبه النقدية كتاب «بناة العالم» كما وصدر له كتاب في السيرة الذاتية تحت عنوان «ماجلان قاهر البحار» .

في كتاب عن بداية الزمن وردت قصة الحمامة الأولى ، وقصة الحمامة الثانية ، اللتان أرسلهما الأب الأول نوح من سفينته برسالة ،وذلك عندما إنغلقت قنوات السماءالمائية ، وعندما اصمتت المياه أعماق الوديان ، ومع ذلك ، فمن اعلن عن سفر ومصير الحمامة الثالثة ؟

رست السفينة المنقذة على قمة جبل ارارات ، حيث انقذت الحياة بعد ان سلمت من الطوفان . وعندما رأت نظرة الأب الأول من السارية الأمواج العارمة فقط ، والمياه الممتدة الى ما لا نهاية ، أرسل نوح حمامته ، الأولى ، التي أراد منها أن تخبره ، ما إذا شاهدت في مكان ما أرضاً تحت السماء المجردة من الغيوم .

ارتفعت الحمامة الأولى – كما تقول الحكاية – مشرعة جناحيها ، طارت نحو الشرق ، ثم اتجهت غرباً ، لكن المياه كانت لا تزال في كل مكان . لم تجد أي مكان تستريح فيه أثناء طيرانها ، وأصاب الشلل جناحيها تدريجاً ، فعادت الى اليابسة الوحيدة في العالم . الى سفينة نوح ، وأخذت تطير حول السفينة الراسية على قمة الجبل ، الى ان رفع نوح يده لتحتضنها في السفينة .

انتظر سبعة أيام اخرى ، سبعة أيام لم يهطل المطر خلالها ، وانخفضت المياه الفائضة ، انذاك أخذ الحمامة ، الثانية ، وأطلقها للاستطلاع ، وطارت نحو العالم . طارت صباحاً ، وعندما عادت عند الغروب ، كانت تحمل بمنقارها غصن زيتون ، كأول اشارة الى الأرض المتحررة . لقد استنتج نوح ، بان قمم الأشجار قد برزت فوق المياه ، وان الحمامة قد اجتازت الامتحان بنجاح .

بعد مضي سبعة أيام أخرى على ذلك ، أرسل الحمامة الثالثة ، للاستطلاع ، وطارت نحو العالم ، طارت صباحاً ، ولكنها مع ذلك لم تعد في المساء ، وانتظر نوح يوماً بعد آخر . لكنها لم تعد . انذاك أدرك الأب الأول ، بأن الأرض قد تحررت من الطوفان ، بعد انخفاض المياه . أما عن الحمامة الثالثة . فانه لم يسمع عنها شيئاً على الاطلاق ،والبشرية لم تعرف مصيرها أيضاً ، ولم يعلن عن اسطورتها أي شيء حتى أيامنا هذه . لكن هذه الرحلة للحمامة الثالثة كانت مصيرية .

لقد انطلقت في الصباح الباكر من باطن السفينة الرطب ، حيث كانت الحيوانات مكدسة هناك في الظلمة ، تزمجر من نفاد البر ، وكان هناك ضجيج الحوافر والمخالب ، وأصوات وحشية تجمع بين النباح والأزيز والصفير والهسهسة ، انطلقت من ضيق المكان الى آفاق رحبة .

انطلقت من الظلام الى النور . ولكن بما انها قد رفعت جناحيها الى الضوء الساطع المطعم بحلاوة المطر ، فقد غمرتها الحرية من حواليها دفعة واحدة ، متمتعة في الوقت ذاته بالانفتاح الرحب اللامحدود .

تدفقت المياه من الأعماق ، وتوهجت الغابات بخضرتها مثل الطحالب الرطبة ، ومن المروج تصاعد بخار الصباح الأبيض ، وانتشر عطر خمائر النباتات ، الذي زاد من روعة المروج . هوى بريق منعكس من السماء الرمادية اللون ، واخترقت أشعة الشمس الحافات المسننة للجبال باحمرارها الصباحي اللانهائي ، وتآلف البحر عبرها . كان منظراً اليهاً ان تشاهد هذا الاستيقاظ ، منظر روحي ، عند مشاهدتك للحمامة وهي تتألق بجناحيها المشرعين فوق العالم الارجواني ، طارت فوق بلدان وبحار ، وتحولت ذاتياً في الحلم ، وبصورة تدريجية ، الى حلم طائر . كانت الأولى التي شاهدت الأرض المتحررة ، وما شاهدته بلا نهاية . لقد نسيت منذ أمد بعيد حكيم السفينة نوح ، نسيت رسالته ، والعودة اليه أيضاً ، لان العالم قد أصبح لها وطناً ، وأصبحت السماء بيتها الشخصي .

هكذا طارت الحمامة الثالثة ، الرسول غير الأمين للأب الأول ، فوق العالم الخالي ، بعيداً ، وبعيداً بصورة متواصلة ، محملة بعاصفة حظها من ريح بحثها الروحي المتواصل ، طارت الى أبعد ، وأبعد ، الى ان ثقل جناحاها ، وأصبح ريشها كالرصاص . سحبتها الأرض اليها بزخم هائل ، وهكذا نزلت الى الأسفل والى الأسفل جناحاها المرهقان حيث أخذت تلامس تيجان الأشجار الرطبة ، وفي مساء اليوم الثاني هبطت أخيراً في أعماق غابة ، كانت لا تزال بدون اسم ، مثلما كانت عليه سائر الأشياء ، في بداية الزمن . أخفت نفسها بين تشابك الأغصان وأخذت تستريح من الرحلة الجوية . غطتها أغصان جافة . وجعلتها الريح تغفو ، وكان الجو بارداً منعشاً بين أغصان ذلك اليوم ، ودافئاً في مسكن الغابة لتلك الليلة . سرعان ما نسيت السماء وريحها وأغلال الآفاق البعيدة ، واحتواها المرتفع الأخضر ،وخيم الوقت حولها بلا حساب .

كانت هناك غابة على كوكبنا الأرضي ، اختارتها الحمامة التائهة مسكناً لها ، لم يكن فيها بشر آنذاك ، وفي عزلة هذه الغابة المطبقة ، تحولت الحمامة تدريجياً الى حلم . وفي الظلام ، في خضرة ليل الغابة ، بنت عشها ، وأخذت السنوات تمر بها مرور الكرام ، ونسيها الموت ، لأن سائر تلك الحيوانات ، وأي جنس منها ، الذي عاصر العالم الأول قبل الطوفان ، لم يكن يستطيع الموت ، ولم يكن هنالك أي صياد يستطيع النيل منها .

لقد أصبحت غير مرئية (غيبية) وعششت في ثنايا أرض مكسوة لم تطلها يد البحث ، وهكذا أصبحت هذه الحمامة في أعماق الغابة أيضاً .ومن الطبيعي أن مر بها أسلاف من أجداد البشر ، ودون طلقة قافزة مئات المرات بين الجدران الأرضية الخضر ، وقطع عمال الغابات جذوع الشجر بتلك الصورة ، التي كانت تجعل الظلام مدوياً فيما حواليه ، والضحكات الخافتة للعاشقين ، كانت تحتفي متسللة ، ورفرفة الأغصان سراً ، وغناء الأطفال الباحثين عن التوت البري بدا رفيعاً قادماً من بعيد . الحمامة الغائصة في الجسد والحلم ، كانت تسمع أحياناً أصوات العالم هذه ، لكنها كانت تصغي لها بلا خوف ، قابعة في ظلامها .

ذات مرة ، انتفضت الغابة في تلك الأيام ، وأخذ صوتها يدوي ، وأخذت السماء تبرق وترعد ، وكأن الأرض قد انشقت الى نصفين . في الهواء انطلقت كتل معدنية سوداء ، يرافقها صفيرها ، وأينما سقطت ، كانت الأرض تتطاير فزعة الى الأعلى ، وسقطت الأشجار مثل الحشائش . أناس بثياب ملونة يرمون الموت من واحد الى آخر ، والمكائن الرهيبة تلفظ النار والحرائق . إنطلقت موجات البرق من

الأرض الى الغيوم ، يلحقها ، الرعد ، وكأن الأرض تريد أن تقفز الى السماء ، أو أن تسقط السماء هاوية على الأرض . انطلقت الحمامة من حلمها . لقد داهمها الموت والفناء ، كما حدث مع المياه في وقت سابق ، وهكذا تدفقت النيران فوق العالم . لقد شرعت جناحيها ، وانطلقت الى الأعلى ، للبحث عن موطن جديد لها ، عوضاً عن الغابة المتهاوية ، للبحث عن موطن للسلام .

إنطلقت وحلقت فوق عالمنا لتجد السلام ولكن حيثما طارت ، كانت تواجه الحرائق في كل مكان ، والبرق والرعد ، والحرب في كل مكان . بحر من النار والدم غطى الأرض ، كما حدث في السابق ، وهاهو طوفان جديد قادم ، وأخذت الحمامة تحلق مسرعة عبر بلداننا ، لترصد مكاناً للراحة ، ومن ثم لتحلق الى الأب الأول ، لتأخذ له غصن زيتون كأمل يبشر بالخير . لكن في هذه الأيام ، لم يكن بالامكان العثور عليه في أي مكان ، وكان طوفان الفساد يتصاعد باستمرار ، الى الأعلى ، فوق الانسانية ، وكانت الحرائق تواصل التهامها في عالمنا . انها لم تجد مكاناً للراحة بعد ، مثلما لم تجد البشرية السلام ، ولم يعد من الجائز لها العودة الى الوطن ، أو أن تستريح مدى الزمن .

لم يرها أي شخص ، تلك الحمامة الاسطورية التائهة ، الحمامة الباحثة عن السلام في أيامنا ، ولكنها مع ذلك تصفق بجناحيها فوق رؤوسنا ، قلقة ومرهقة الجناحين . أحياناً في الليل فقط ، عندما يستيقظ المرء مرعوباً من نومه ، فانه يسمع حفيفاً في أعالي الجو ، ملاحقة سريعة في الظلام ، وطيراناً مضطرباً وهروباً بلا توقف . ومع تأرجح طيرانها تحلق جميع أفكارنا السود ، وفي هلعها ، تغلي سائر

رغباتنا ، وهذه التي تطير هنا بين الأرض والسماء مرتجفة ، الحمامة التائهة ، تعلن الآن عن مصيرنا الذاتي ، ذلك المصير الذي يعلن عن رسالتنا غير الأمينة ، التي وجهناها الى الأب الأول للبشرية . ويبقى مجدداً ذلك العالم ، كما كان قبل آلاف السنين ، بانتظار أن تمتد الأيدي اليه لتعترف أيضاً بأن تجربة هذا الاختبار كانت جديرة بما فيه الكفاية .

من هو الرجل ؟

كورت كوزنبيرج

كورت كوزنبيرج :

ولد الأديب الألماني الأصل في السويد عام ١٩٠٤ . صدرت قصة «من هو الرجل» ضمن مجموعته القصصية الموسومة «زهور عباد الشمس» عن «دار نشر روفالت» الالمانية في هامبورغ ، كما ونشرت هذه القصة في انطولوجيا «القاصون المعاصرون الالمان» عن «دار نشر فيليب ريكلام» في شتوتغارت عام ١٩٦١ .

عندما هبط السيد بوراس الى فناء الطابق الأرضي في الساعة العاشرة والنصف صباحاً ، وجد نفسه خفيفاً كالريشة ، وأحسّ برغبة جامحة في الضحك ، لقد شرب في الليلة الماضية مع أحد الأصدقاء حدّ الثمالة . النبيذ في البدء ، ثم إحتسى العرق والبيرة ، وأخيراً اختلط عليه الأمر ، كان الأمر أكثر مما يحتمل بعض الشيء ، حتى انه لم يعد يذكر طريق عودته . ولِمَ يتذكّر ؟ المهم انه وصل بيته ، وهذا مؤكد ، وبما فيه الكفاية .

استيقظ متأخراً ! هل هذه الوجبة المتأخرة بانتظاره ، أم هو بانتظار الوجبة المتأخرة ؟ من المحتمل ان كليهما يترقبان أحدهما الآخر . ان التصوّر ، بانه سيستغفل هذه الوجبة المتأخرة المحتالة في الحال ، قد جعل السيد بوراس يشعر بسرور بالغ ، وأخذ يقهقه مع نفسه وكانت هذه آخر ضحكة له في هذا اليوم .

قرر السيد بوراس إلقاء نظرة على الحديقة أثناء نزوله الى طابق بيته الأرضي ، سمع صوت زوجته أثناء عملها في المطبخ ، ولكنه لم يجد الرغبة للاندفاع صوبها .

فالناس الذين يستيقظون مبكراً يتصرفون مع المتأخرين في نومهم بصرامة ، بل وبصورة مهينة ، أما الحديقة فانها على العكس ، طيبّة بنقاء ، فهي لا تنظر للفرد ، بل تدعه ينظر اليها ، إنها هنا ، وهنا فقط خضراء جداً .

والخضرة يحتاجها الإنسان ، لأنها تنشطّه ، ومشاهدة الخضرة مسألة صحية ، مثل الطعام الطازج على وجه التقريب .

تفسحّ السيد بوراس في الحديقة . وعندما وصل الى شجيرات التوت البري شاهد كلبه منشغلاً بحفرة في الأرض . صفّر له . توقف الكلب ، وحدّق إلى صاحبه . وعوضاً عن أن يقفز فرحاً باتجاهه ، أخذ الكلب يحوم غاضباً حوله ، مثيراً ضجة بنباحه .

انه يضمر شيئاً ضدي . فكّر السيد بوراس . من المحتمل انه شمّ رائحة الكحول المتدفقة من أنفاسي . «هيا . . تعال» أمر الكلب ، وأخذ يضرب على ساق سرواله مداعباً إياه ، ولكن الكلب قد تصورّ هذه المداعبة على انها ضرب من التحدّي ، فنهش السروال ، وعندما زجره السيد بوراس عضّ يده ، تملّك السيد بوراس الغضب ومن ثمّ الخوف ، في النهاية أصبح الحيوان مسعوراً ، تراجع السيد بوراس الى الخلف ليتحدث مع زوجته حول الأمر . ببطء تمكّن من التراجع ، إذ توجّب عليه وضع الكلب في نظره ، وبحركة دائرية ، مثل النحلة ، اتجه نحو بيته .

«ماذا تفعل في حديقتنا ؟ صرخة مدوّية إنطلقت خلفه ، وعندما إلتفت نظر في وجه زوجته . لم يستطع مواصلة النظر طويلاً ، فقد كان عليه أن يتحاشى الكلب الذي كان يضايقه بغضب .

« مارتا » صرخ السيد بوراس « هل جننتم جميعاً ! ؟ »
« اذا ناديتني مرة ثانية باسمي الأول ، فانني سأخابر البوليس »
كانت تتكلم معه بهذه النبرة حقاً ما كان يصدّق ذلك : بسبب سكر بسيط ، تنكر العلاقة الزوجية الطويلة الأمد .
« مَنْ هذا العم ؟ » استفسر صوت طفل . تألم السيد بوراس للغاية وبصورة خاصة من هذا الاستفسار ، لأنه كان يحب ابنه . هاهي الآن تحرضّ ولده أيضاً .
« اخرج » صرخت المرأة
« اخرج » صاح الصبي بشجاعة محتمياً بأمه الغاضبة ونباح الكلب أيضاً ، تحرك الثلاثة سوية نحو السيد بوراس هنا استسلم الرجل ، وانسحب كاللص من قطعة أرضه .

اجتاز الشارع وهو في حيرة من أمره ، واستدار حول أقرب زاوية ، وواصل السير واستدار مرة أخرى واستمر على هذا المنوال طوال فترة من الزمن منشغل الفكر . فجأة خطرت له فكرة ، انه من المحتمل قد أساء التصرف عند عودته ثملاً في الليلة الماضية ، وأثار بذلك اشمئزاز عائلته ، كان هذا الأمر ليس احتمالاً ، ولكنه على أية حال ممكن ، ففي حالة الثمل قد يحدث الكثير ، بل كل شيء في الواقع .

انه من المحتمل ، ثم تأمل السيد بوراس قائلاً : من المحتمل ان صديقي كيليش قد أوصلني الى البيت ، وانه يعرف أكثر من ذلك . سأسأله .

كان مسكن الصديق ليس بعيداً . بعد مضي خمس دقائق طرق السيد بوراس بابه . فتح كليش ونظر الى السيد بوراس ببرود

«ماذا ترغب ؟» سأل الصديق «كليش» وصرخ بوراس «ماهذا الهراء» .

بدت علائم السخرية على وجه الصديق وقال «هذا ما أود أن أسأله أيضاً» ثم أغلق الباب .

حتى الصديق وقف ضده ! ترى ماذا حدث ، ان الأبواب تغلق بوجهه ؟

لا أستطيع أن أفسّر هذا الأمر ، اعترف بوراس لنفسه . لا أستطيع العودة الى أهلي ، على أية حال بالنسبة لهذا اليوم ، كأنه مغناطيس . ولكن أين ينبغي أن أبات ؟ عند كارلو بطبيعة الحال . انه الصديق الأفضل . كان عليّ أن أعرف ذلك ، فاننا نعرف بعضنا منذ أيام المدرسة ، وهنا موطن إرتباطنا .

ان زيارة كارلو تعني القيام برحلة صغيرة ، ولهذا السبب فترت العلاقات بيننا تدريجياً ، ولكن كان على السيد بوراس في هذا اليوم أن يتلافى كسله ، استغرقت رحلة وصوله مسكن كارلو حوالي نصف ساعة . تعثّر على السلّم وهذا طالع سيء ، هذا ما جال في فكر السيد بوراس ، فهو قد تعثّر هذا اليوم .

قرع الجرس . اقتربت خطوات وفتحت الباب ، وظهر صديق الدراسة ، ولكنه قال بعصبية «لن أشتري أي شيء ولا أريد أن أشترك بأي شيء ، ولن أوقّع ولا أملك نقوداً . طاب يومك» هوى الباب على القفل ، أثناء نزوله السلم عاوده الشعور ، بانه خفيف كالريشة ،

وكأنه يحلّق في الهواء ، والرغبة في الضحك عادت اليه مجدداً ، ولكن سيّان مثل سابقتها .

وأخيراً ، أخيراً أدرك السيد بوراس وهو يعود الى الشارع ماحدث : بايجاز ، لقد فقد توازنه الذاتي مع نفسه . أضاع ماضيه مثل مايفقد المرء حافظة نقوده ، ولم يعد بامكانه إثبات هويته . يا للعجب ، فكّر السيد بوراس . إنني أعيش حقاً ، ورغم ذلك يبدو الأمر وكأنني لم أكن عائشاً ، لأن أية أثار قد إختفت ، رغم قناعتي التامة بوجودي . كلا ، لا يمكن أن يكون ذلك مجرد وهم .ولكن كيف تسنى لي أن أفقد كل شيء ؟ ربما بسبب حركة طائشة ؟ هذا هو عين الصواب ، ان الأمر كذلك . لقد انزلقت من خارطة العالم ، ولم أعد لائقاً للعودة اليها إن أي جرم سماوي أكثر منهجية منّي .

قاربت الساعة الواحدة ظهراً وهو في هذه الدوامة . ورغم ان السيد بوراس ، كما كان يقصد ، قد أصبح خارج بنية هذا العالم ، إلا انه شعر بالجوع ، لانه اعتاد الأكل في مثل هذا الوقت ، هذا اذا ما سمح له الحديث عن العادات إطلاقاً . بحث عن مطعم ، ولكن المنطقة غير مؤهلة ، فهي مجرد ضاحية منزوية ومشيّدة للسكن فقط . تخطى السيد بوراس العديد من المساكن والحدائق وهو يجر أذيال الخيبة ، مساكن تشبه الى حد بعيد البيت الذي كان يعتبره بيته . في ضوء هذا التصور لم تعتره الدهشة ، وبصورة خاصة عندما ظهرت سيدة من الشباك وخاطبته قائلة «حقاً ، لقد حان الوقت لمجيئك : فالحساء جاهز على المائدة» .

فتح السيد بوراس بوابة الحديقة ودخل دون أن يطيل التفكير

كان جائعاً . وأمام باب البيت قفز صبي نحوه قائلاً «أبي . فطائر البيض جاهزة» .

«شيء جميل يا بني» أجابه السيد بوراس . مسح غبار حذائه وعلق قبعته على المسند العمودي وداعب المرأة بقبلة خاطفة ، ثم جلس الى المائدة وبدأ بارتشاف الحساء ، أثناء الأكل كان يراقب المرأة والصبي بحذر كي لا يكتشفا أمره ، لانهما قد اعتبراه كما يبدو رب البيت . المرأة ليست بالقبيحة ، والصبي أعجبه أيضاً ، والطعام لذيذ .

كلا . . . فلا فرق هناك ، فكر السيد بوراس ، فالعائلة هي العائلة ، والمهم ان يكون للمرء واحدة . انها مسألة حظ ، لأنني وجدت الأمان . كان الوضع مكدّراً قبل ذلك . يقيناً انني مااخترتهما . ولكن ماذا بامكان المرء ان يختار ؟ ان المرء يختار دوماً كما يجب ان يختار . كلا . كلا ، ان المبادلة جيدة للغاية ، بل وهي تمنّي النفس بالأمل ، انها نوع من التغيير في الأمل .

«لم تحدّق إلينا هكذا ؟ سألته المرأة «هل لديك مأخذ انتقادي ؟»

مسح السيد بوراس شفتيه بالمنديل وقال «بالعكس فالأمر على أفضل مايرام» . أخذ تفاحة من سلة الفاكهة وبدأ يقشرها . فكّر السيد بوراس ، بانه سرعان ما سيعتاد على هذه الحالة ، بل ومن المحتمل انه عاش دوماً هنا ، وانه توهّم وجوده الآخر فقط . من يعرف تماماً ، فيما لو كان يحلم أو في حالة اليقظة ؟

قُرع الجرس «إبق جالساً» قالت المرأة ونهضت خارجة . وبما انها قد تركت الباب مسنداً فقط ، فكان بامكان المرء ان يسمع مايدور في الممر .

«اخرج حالاً والا فسأنادي زوجي»

«يبدو انك لست في كامل عقلك» أجاب صوت رجالي «دعي المزاح فأنا جائع» «ليس لدينا هنا مطبخ للمتسولين . اخرج . سأعلمك كيف تخاطبني» واستمر النزاع على هذا المنوال ولكنه لم يدم طويلاً . لقد إنسحب الرجل من الميدان ، ودوّى صوت إنغلاق الباب خلفه .

عادت المرأة وعلائم الغضب ترتسم على وجهها «يا لمثل هذه الوقاحة ، وأنت بطبيعة الحال لم تقف الى جانبي» .

«آلمني هذا الرجل» ردّد السيد بوراس وأضاف «من المؤكد ان الجوع قد عذّبه ، أو انه توهم بيتنا بيته» .

«توهّم» صرخت المرأة «يقيناً ليس لديه أي بيت أو عائلة» .

نهض السيد بوراس مسرعاً «لهذا السبب بالذات سأمنحه ثمن وجبة غداء . سأعود حالاً» . هرول خارجاً ولحق بالغريب عند باب الحديقة . بدا الرجل شاحباً من أثر الانفعال وكانت نظراته مشتتة .

قال السيد بوراس «أستطيع أن أتصور بماذا تفكر وتشعر ، وأود المساعدة» أخرج دفتر ملاحظاته وكتب سطراً على ورقة وقطعها «خذ يا صديقي . هذا عنوان جيد ، إذهب إليه ، ولكن بسرعة ، وإلا فالطعام سيبرد» .

أخذ الرجل الورقة ولم يجد مايقوله . وماكان بامكانه أن يقول شيئاً ، لأن السيد بوراس إختفى .

«أنت طيب القلب للغاية» قالت المرأة . جلس السيد بوراس وتناول التفاحة مجدداً ، وقال «لستُ كذلك . غير أنني تبرعت من باب الحيطة . فما حدث له اليوم يمكن أن يحدث معي غداً» .

غادر السيد بوراس في اليوم التالي متوجهاً الى المدينة ، وبحث عن الشارع الذي سكن فيه . وعندما مرّ ببيته ، شاهد زوجته جالسة في الحديقة مع الرجل . المرأة تحيك والرجل يقرأ الجريدة ، والطمأنينة تعلو محياها . وهنا شعر السيد بوراس بالطمأنينة أيضاً .

الطيور الخمسة

غونتر غراس

غونتر غراس :

يعد الروائي والشاعر والكاتب السياسي والرسام غونتر غراس واحداً من أشهر الأدباء الألمان من جيل مابعد الحرب العالمية الثانية .

لقد بدأ غونتر غراس مسيرة حياته الابداعية منذ أوائل الخمسينات رساماً ، ثم توجّه نحو الشعر وفيما بعد نحو الرواية والقصة ، وصدر أول كتاب له عام ١٩٥٦ ، وكان عبارة عن مجموعته الشعرية الأولى الموسومة «محاسن طيور الريح» عن دار نشر «هيرمان لوختر هاند» في مدينة دار مشتانت الالمانية . وقد واصلت هذه الدار نشر رواياته ومجموعاته الشعرية والقصصية حتى يومنا هذا .

ولد غونتر غراس في مدينة دانزك البولونية عام ١٩٢٧ وهو يعيش الآن مع زوجته وأطفاله الثلاثة في برلين الغربية . وبعد أن شارك في الحرب العالمية الثانية وأصيب فيها ، ووقع في الأسر أيضاً ، قرر غراس الاقامة في المانيا في أعقاب الحرب ، فدرس الفن في أكاديمية دوسلدروف للفنون ، وتفرّغ بصورة نهائية للكتابة والتأليف والرسم .

يتناول غونتر غراس في مؤلفاته الواقع الالماني السائد ، سواء في زمن الحرب أم في أعقابها ، وبأسلوب نقدي واقعي قاسٍ ، فهو أيضاً من كتّاب المقالة السياسية النقدية المعروفين داخل وخارج المانيا . وهو قد خاض معترك الحياة السياسية في المانيا الاتحادية وغالباً ماوقف محرضاً مواطنيه لانتخاب مرشحي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني خلال حملات الدعاية الانتخابية للبرلمان الالماني الاتحادي «الرايخستاغ» . وتعاظم نشاطه السياسي بعد فشل مرشحي هذا الحزب في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٨٣ .

في أوائل الثمانينات قام غونتر غراس برحلات إستطلاعية الى بلدان جنوب شرق آسيا ، وجسّد انطباعاته عن الأوضاع الاجتماعية لهذه البلدان في بعض رواياته ، وخاصة في رواية «ولادات الرأس أو فناء المانيا» .

أعلن غونتر غراس سلام الصمت للإعراب عن احتجاجه على مجمل الوضع المتردي السائد في المانيا ، وذلك خلال إنعقاد مؤتمر الأدباء الألمان في هامبورغ في حزيران ١٩٨٦ ، ولتعزيز موقفه هذا قرر هجرة المانيا لمدة عام واحد والإقامة في كلكتا .

صدرت رواية لغونتر غراس عام ١٩٨٥ تحت عنوان «الفأرة» . وهذه الرواية هي بمثابة «اداة التعبير الذاتي عن معاناته ، وشعوره بالقلق والخيبة من المستقبل . وهو قد كثّف تفاصيلها لتصبح اسطورة نهاية العصر ، التي لا تعيش فيها سوى الفئران ، ومن ثم لتخبره الفأرة في نهاية المطاف عن أفول الانسانية» . وهذا ماكتبه أحد النقاد الألمان عن المؤلف والرواية في أعقاب صدورها مباشرة .

نال غونتر غراس جائزة الشعر الغنائي عام ١٩٥٥ وجائزة «مجموعة ٤٧) الأدبية لعام ٩٥٩ ، وجائزة الأدب لمقاطعة بريمن في العام ذاته أيضاً .

غونتر غراس من الكتّاب الألمان الغزيري الإنتاج ، وهو من الأدباء القلائل الذين لا يعانون من مشاكل النشر . فدار نشر «هيرمان لوختر هاند» قد أخذت على عاتقها نشر كافة مؤلفاته – الرواية والقصة والشعر والمقالات السياسية – .

ومن مؤلفاته :

طبل الصفيح – رواية / ١٩٥٩

المثلث المهترئ – مجموعة شعرية/ ١٩٦٠ .

قط وفأر – رواية / ١٩٦١ .

سنوات الكلاب ، أو السنوات المسعورة – رواية / ١٩٦٣ .

الاستفهام – مجموعة شعرية / ١٩٦٧ .

حول البديهي – ١٩٦٨ .

تخدير موضعي – ١٩٦٩ .

مسرحيات – ١٩٧٠ .

مجموعة قصائد – ١٩٧١ .

من مذكرات حلزون – رواية / ١٩٧٢ .

إكراماً لماريا – ١٩٧٣ .

المواطن وصوته – ١٩٧٤ .

سمك الفلامندر – ١٩٧٧ / رواية .

العقاب أو درس لا ينسى – ١٩٧٨ / رواية .

لقاء في تلغته – رواية / ١٩٧٩ .

الفيضان – مسرحية / ١٩٦٨ .

ولادات الرأس أو فناء المانيا – رواية / ١٩٨٠ .

مقالات حول الأدب – ١٩٨٠ .

الفارة – رواية / ٥ – ١٩٨٦ .

صاغ غونتر غراس قصة «طيور الريح» بأسلوب رمزي متميز ، ووضع الى جانب عنوانها الرئيسي ثلاثة عناوين ثانوية ، وهي حسب تسلسلها «النسب» و «حرف كثيرة» و «رحلة وهدف» . وكتبها على غرار تخطيطاته الفنية الرمزية العديمة الظلال ، والمتميزة الهوية بأسلوبها وبموضوعاتها المثيرة للعديد من التساؤلات ، وكما هو مألوف عن غونتر غراس في كافة نتاجاته الابداعية .

في هذه القصة يوظف غونتر غراس ازدواجية تأويل معاني مفرداته اليومية الألمانية المعاصرة ، وخاصة فترة مابعد الحرب ، اضافة الى انه يعالج الظواهر الاجتماعية لبيئته بأسلوب نقدي ساخر ومؤلم في آن واحد .

وفي ضوء ذلك فهو يطالب القارئ ويجذبه بقوة لمناقشة مايكتبه ، غراس ويحلل الأجواء الباطنية لاحداث ومفردات كتابته هذه .

ان غونتر غراس يعطي عبر اسلوبه هذا صورة تبدو مألوفة للواقع ، ولكنها غنية بالتجديد والوضوح .

١ . . . النسب

كانت تكفي مخاطبة الأوتاد لوضع اشارة صغيرة متفق عليها مسبقاً . والخطوة التالية كانت بسيطة ، ولم تكن بحاجة لتشخيص هويتها . رحل عن الأرض خمس مرات ، وظهر بلا جذور . وان ما كان سياجاً ينهي حديقة في السابق ، قد أصبح الان سياجاً في السماء ، يردد فيها أقوالاً مأثورة .

هذه هي نصوص اعلانات يعرفها الجميع عند سماء آب . وكم يود المرء تشجيع بقية الأوتاد للصعود الى السماء ، ويريد للحدائق السماح ، كي ترحل حتى اوغسبورغ أو أبعد منها بعض الشيء ، الى صحراء (تساك) وذلك من أجل أن تقدم الخضراوات الى ذلك الأسد الأخير ، المصاب بداء الاسقربوط .

تجلس التقوى كالمعتاد على أرخص الأماكن وتلوك تذكرة سفرها ، ايمان هنا ، وايمان هناك ، وهنا تسود الخيبة . وهنا تمتد الاصبع في الهواء ، نحو السماء ، أو الى أي مكان آخر . السيد توماس على سبيل المثال ، يذهب يومياً ، حتى عند هطول المطر ، الى مستودع جثث الموتى للتحدث معها ، ويحاول اقناع

نفسه باشارات من اصبعه بماذا ؟ لماذا لا ينبغي للميت أن يتحدث ، خاصة وأن هنالك حقاً أحياء بما فيه الكفاية ، من الذين لا يفتحون أفواههم .

من علم الوتد لعبة التبادل هذه ، مهما كان الأمر ، فان لهذه اللعبة أهميتها ، ان تتحمل الطيران خمس مرات من الجنوب الى الشمال ، وأن تربط بين روما وكوبنهاجن ، فتلك مسألة مهمة . ولماذا هذا التمرد المفاجئ الآن ؟ ضربة جناح ، صرخة طير . هل الأمر بحاجة الى كل ذلك الآن ، لأن الابتكار يسمى معدناً خفيفاً ، يتبرم مرتين أو ضعفيهما ، ليهبط في مطار تيمبلهوف عصراً في الساعة الرابعة و ١٨ دقيقة .

خمسة طيور ، خمسة ، خمسة ، خمسة . يد مملوءة بكاملها . ينبغي على السيارات أن تدور نحو مكان آخر ، هناك حيث الأربعة في موطنهم ، الى القطط والكلاب القصيرة القوائم (كلاب الداكل) . دعونا نتدرب على الرباعيات ، أتعرف ذلك البلد الذي يزهر فيه البرسيم الرباعي الأوراق . جردوا المتاحف مرة من المدفع الرباعي . من المحتمل أن نلتقي واحداً ، وآنذاك نكون أربعة فقط .

خمسة طيور . طفولتهم تعني : أن تكون وتداً ، ترمي الظلال ، أن يرتضيك أي كلب في الحساب ، وعند الخمسة يتوقف كل شيء ، وكان من الواجب ان يكون السابع راقداً في أمريكا ، وأمريكا ؟ هنا بدأت الرحلة الكبيرة بمجموعها ، والتحول المستمر ، وهذا ماتعنيه البيضة في الختام .

٢ . . . حرف كثيرة

من يريد انكار هذه الرقاب ، وهذه الفكرة المتعلقة بالمنقار ، منقار بامكان المرء أن يفتحه بشيء من الرفق مع الطائر ، مثل محفظة الجيب ، ومن ثم ليستل منه ورقة نقدية . غير قابلة للصرف من قبل أي فرد . يا لهذه العملة ! ان الذهب ملقى على الشارع والعصافير تملكه .

لانريد أن نستلقي على الشارع ونعتاش على الخيل . فلسنا عصافير على أية حال – لكل مصنع حقيقي مداخن . هاهي الطيور قد وقفت ، مرتبكة بعض الشيء ، بين بنايات مصنع للاسمنت ، انها تدخن ، رغم انها لم تكن حقاً معتادة على ذلك وهي لم تبق هنا طويلاً ، وقد وصفت الصحف اليومية رحيلها بالكارثة .

كان من الغباء حقاً المثول في دائرة التلغراف للمقابلة . وقفوا مجدداً بانتظام ، واستمعوا الى السلك فيما بينهم – مر القطار على مقربة ـ وسرب من السنونو . الطيور الخمسة كانت تأتلف مع سائر الأشياء والمخلوقات باستثناء السنونو ، الذي لم تكن تطيقه بالمرة . ومن ثم انقطعت الاتصالات الهاتفية الخارجية مع المدينة لفترة طويلة .

في شركة بولين ولوفلر ، لتوزيع الورق ، كان السيد لوفلر معوقاً في يده اليمنى . كان كل ماينقصه خمسة أصابع . وهكذا كان من الواجب ان يشعر بالخيبة حقاً ، عندما حاول التعامل مع الطيور ، لقد تحقق هذا الأمر في البداية . بل وحتى انه استطاع ان يضع حلقة بالتحايل . وفي المحكمة حدث خلل أثناء القسم على قول الصدق . لقد انكشف الكذب بأجمعه ، ومعه الطيور . لم يستطع لوفلر سوى الاستسلام ورفع يده اليسرى .

بصورة مشابهة لذلك حدث مثل هذا الأمر مع السيرك ، الذي ابتدأ كمشروع بسيط ، وأخذ يتوسع ، ويتوسع . أراد المرء خيمة ذات خمسة أوتاد ، وأقنع الطيور بالتزام الهدوء . وهؤلاء نفذوا ذلك الى ان وصلت الدببة وهي على دراجاتها البخارية . هذا يكفي ، قالوا ، لقد سبق السيف العذل ، لقد أخذوا الخيمة الى مسافة ما ، وطالب المشاهدون فيما بعد باسترجاع أجور الدخول .

أشغال طارئة . يرصفون كالأعمدة ، هوت بوابة أحد البنوك . أثناء حفل للسلام نكست فجأة الأعلام ، وتفرقت الجموع . في سباق القفز بالزانة استبعد خمسة من الرياضيين لسوء تصرفهم مع الطيور .

عندما عادت الطيور الخمسة الى هامبورغ ، احتلت أحد أرصفة الميناء ، وسمت نفسها رافعات وفرغت بواخر الحبوب والبن . وبعد ذلك أعلن الاضراب ، ووقف عمال الميناء في مجاميع - في هذه الأيام وصلت تأشيرة السفر (الفيزا) . وكان بالامكان أن تبدأ الرحلة الكبيرة .

٣ . . . رحلة وهدف

مازالوا يتحدثون عن السفن الشراعية الأخيرة ولكن لا تصدقوهم . فالأمر لا يحتاج سوى هيكل مملوء بوعود فارغة ، ويحتاج شيئاً ثقيلاً لتنظيم سير السفينة يعود الى الوطن ، وفريقا من البحارة ، يتحدث سائر اللغات عدا الساكسونية . وفي نهاية المطاف ، فان الصواري والأشرعة من مقومات السفن الحقيقية المتكاملة . أذعنت الطيور لاستئجارها . واستغرقت الرحلة ٥٧ يوماً ، وكانت مريحة رغم النوارس . وذات يوم حدث نزاع بين الصاري الأمامي والصاري الرئيسي . شق صغير أصاب أعلى صارية المريخ الأمامية ، وواصلت الرحلة مسارها .

كان الاستقبال كبيراً عند الرسو في نيويورك . الشوارع تشبه بحراً من الزهور . وقدم رئيس الجمهورية قبعة بنمية لكل من الطيور الخمسة ، وأظهر أسنانه المنظمة بصورة جيدة .

خمسة رحلوا ، ليزوروا السبعة . وفي أحد بساتين التفاح في فرجينيا وجدوا السبعة . انضموا الى جانب السبعة ، وشكلوا سياجاً مرحاً . الا ان مالك البستان ، دي . اس . ابراهام واخوانه ، قد

عاد ، وهو الذي يعشق الحرية ويكره الأسيجة . لقد جلب معه منشاره ومطرقته ، وقطع السبعة بمنشاره ، والخمسة دفنهم في تراب فرجينيا . وسوى كل شيء بالدرفلة والجرار بدقة .

لكن الطيور قد رفرفت بأجنحتها بين الفحم والسلفات مندهشة بعض الشيء . لم تجد لها عملاً بعد الآن . ولذلك أرادت في القريب العاجل ، أن تضع خمس بيضات ، لكل جزء من العالم بيضة واحدة ، وأن تفقسها . ترى من يعلم ، ما سيكمن بين بياض البيض وصفاره . على أية حال ، ينبغي أن يصبح البيض مفاجآت مؤثرة جداً لاوربا وامريكا وبقية أرجاء العالم .

جزيرة القصب

يان فليجر

يان فليجر :

عاصر الأديب الألماني يان فليجر مرحلة بناء جمهورية المانيا الديمقراطية (سابقاً) وكتب قصصه انطلاقاً من مجرى الحياة اليومية لهذه المرحلة ، التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية . من الأدباء الألمان المتفرغين للعمل الأدبي .

عبر حقول اللفت ، الممتدة خلف البحيرة ، جاء فنتر ماشياً على طول الساحل . كان كلما يقطع هذه المسافة ، يشاهد ذلك الصبي الجالس على المرساة فوق حافة البحيرة ومعه ناظور يوجهه نحو الجزيرة الصغيرة ، الكائنة وسط البحيرة ، والمكسوة بالأحراش الكثيفة ، وبأشجاره الكبيرة ، التي ترتفع شاهقة . ترك الصبي الناظور ونظر الى فنتر . كان يعلم انه رئيس الجمعية التعاونية الزراعية للقرية المجاورة . وقبل سنوات ، وقبل ان يذهب مع زوجته الى كوبا ، كان يشرف على رعاية الأبقار الموجودة في المراعي المحيطة بقرية بيرنباخ .

لم يكن مظهره يوحي بانه رئيس الجمعية ، ولا تبدو عليه ملامح الفلاح ، ولم يكن طويل القامة . كان نحيلاً للغاية ، وقوامه كقوام موظّف السجلات في شتيتين . وعندما يبتسم فنتر ، فان المرء يلحظ الغمازتين على جاني فمه ، وسأله فنتر :

ـ «هل مدى الرؤية واضح ؟» إبتسم الصبي ، ولاحظ فنتر غمازتين حول فمه هو الآخر ، فداهمه شعور وكأن أحدهم يحاول خنقه .

هذا ماحدث لأول مرة ، وهو يشاهدالصبي عن قرب . لقد إعتاد أن يراه من بعيد فقط ، بشعره الأشقر الفضي ، كشعر إنجه .

وأجاب الصبي :
ـ ناظور جيد . ثم أردف قائلاً : من الوالد . بلع فنتر ريقه . تقدم وجلس على لوح الخشب السميك الى جانب الصبي ، الذي كان يجب أن يكون في العاشرة من العمر ، كما فكرّ فنتر ، لأن عشرة صيوف قد مرّت على ذلك الصيف مع انجه . حدّق فنتر الى أعماق ماءالبحيرة ، وفي الوقت ذاته مرقت فوقهما طيور حمراء الريش . شاهد القاع بوضوح ، لأنهما كانا جالسين على المرساة ، وكان هنالك أنبوب يشق طريقه بحرية في الماء .

ماذا تعني عشر سنوات ، هذا ماجال في فكر فنتر . عشر مرات من مواسم البذار ، وعشرة مواسم حصاد ، عشرة احتفالات سنوية لتدشين كنيسة ؟عشر سنوات . . . كيف كان الحال قبل عشرة صيوف ؟ آنذاك ، عندما عاد الى القرية ومعه الدبلوم ، حزيناً غاضباً ، لأن إنجه لم تنتظره كما تعاهدا ، كانت تحمل في اصبعها خاتم الزواج ، وهي في طريقها مع طفلها الأول الى دار الحضانة . وقتذاك خيّم الشحوب على وجه فنتر ، وكان الناس يهمسون ، بان العمل يسحقه ، لأنه يبقى حتى ساعات متأخرة من الليل لينجز أعمالاً كتابية تافهة . ثم تزوّج مارتينا . كان مدفوعاً اليها ، كإندفاع العوامة الى البحر ، وهي منحته الفرصة لهذا الاندفاع ، لانها كانت تريده دوماً . ولم يعد يرى إنجه مطلقاً ، فهي قد تحاشته وان كانت بقيت على حبه عن بعد . وكان الصيف الذي حلّ بعد عودته الى الوطن أشد حرارة من الصيوف السابقة . وشاءت الصدف ان يلتقيا ، فنتر وانجه ، ذات يوم على الطريق

المحاذي للبحيرة ، والمؤدي الى حقل اللفت . ولم تستطع ان تتحاشاه أو الهرب منه ، وسارت الأمور كمسار الحلم . فالجزيرة وسط البحيرة خير حاجز أمام الأنظار . انذاك ، أخذت انجه تضحك وتبكي في آن واحد ، لكن الصيف يطارد ريح الخريف ، وقد انسحبت اللقالق نحو الجنوب عبر شتيتين مروراً بحقول اللفت . وقفت انجه أمام فنتر على أرض الجزيرة ، شاحبة ، مشعثّة الشعر . تدعيّ أنها حامل منه ، ان ذلك قد حدث ساعة الرعد والبرق تحت الشجرة .ولكن لا يجوز لأي امرئ ان يفكر في الطلاق في القرية ، لا أحد على الاطلاق . كان الأمر كذلك ، وسيبقى أيضاً على ماهو عليه . . وفينتزل ، الخبير الزراعي ، كان عليه ان يرحل ، عندما فعل ذلك . ولم يسامحه أي فرد في القرية ، لأن أناس شتيتين وبيرنباخ من طينة خاصة .

زواجان ؟ وفنتر في مركزه هذا ؟ وطفلها الأول ؟ وفينتزل ، زوجها ، هذا الدب الطَّيب ؟

الناس الذين يولدون في بيرنباخ أو شتيتين كأنهم أشجار عميقة الجذور ، لا أحد منهم يفكر في الرحيل وانجه كذلك أيضاً . فاذا ما اقتلعت من أرضها فانها ستذبل . كان وجه انجه مبللاً بالدموع ، ولم يستطع فنتر ان يتحدث . فهو قد أحبها حباً جارفاً . واستحلفته إنجه ، ان يكون الأمر سراً بينهما فقط لا يعلم به أحد سواهما في القرية ، حتى الطفل الذي تحمله لا يجوز ان يعرف ذلك . أومأ فنتر موافقاً بصمت . ولم تعد إنجه تذهب الى الجزيرة ، وحرصت على ان تتحاشى طريقه ، أجل ، شاهدها مرة وهي حامل ، في شهرها الخامس ، وبعدمضي أربعة أشهر ولدت طفلها الثاني ، صبي ذو غمازتين عندما يضحك ، أما شعره فكان يشبه شعر انجة .

كان فنتر آنذاك في كوبا ، يعمل كخبير لتربية البقر بعد ان وقع الاختيار عليه كأفضل من تتوفر فيه الشروط .

«انه طائر الثلج» صرخ الصبي مشيراً الى الطائر الأزرق الأخضر ، ببطنه الأحمر ، كحمرة الصدأ ، الذي انطلق نحو الماء كالسهم قانصاً سمكة . أومأ فنتر برأسه مؤيداً الصبي .

«فنتر السعادة» يسموّنه في القرية بأجمعها ، رغم انه نادراً ماكان سعيداً . الزواج بمارتينا لم يثمر طفلاً ، لكن الحظ حالفه في العمل . فالجمعية الزراعية التعاونية قد ازدهرت وأصبحت غنية ، بل وأغنى من التي في كرامبن . وحالفه الحظ أيضاً في مهمته الى كوبا ، وفي تربية هذا النوع المحسن النسل ، الذي تكيف مع الجو الجديد تماماً . انها أبقار كالتي في بيرنباخ .

لم يكن الصبي ضخماً ، كان ضعيف البنية بالنسبة لعمره ، بل صغير الجسم جداً ورقيقاً . وأخوه الذي يكبره بعام واحد ، قد تجاوزه في الطول كثيراً ، ولم يكن ينافسه قوة من كان في سنه .

أخذ فنتر يفكّر بزوج انجه فينتزل ، سائق الجرار الذي كان طويلاً وضخماً كالدولاب . كانت حياته الزوجية مع انجه حياة نموذجية لم تشبها أية شائبة .

طائر البلشون ، همس الصبي مرة أخرى وهو يشير الى الجزيرة :

وأجابه فنتر :

ـ بلشون السمك

فأومأ الصبي برأسه مؤيداً .

حكّ فنتر ذقنه وشعر ، ان لحيته الكثة أكثر خشونة من ذي قبل . ذات يوم نصب فنتر مصائد حديدية ، لأن طيور البلشون تقتنص السمك من كافة المياه الضحلة ، ولكن صدر قانون يمنع استعمال هذه المصائد .

ـ قبل اثنتي عشرة سنة كانت طيور البلشون موجودة . ولكن شخص ما قد تسلق الى أعشاشها في أعالي الشجر وانتزعها ، في وقت كان مثل هذا العمل ممنوعاً سأل الصبي :

ـ مَنْ قام بذلك ؟

رفع فنتر كتفيه وخفضهما . عندما كان الصبي يتحدث ، كان فنتر يحدّق في وجهه . لقد أراد أن يلحظ كل ماكان الصبي يقوم به ، كل إشارة أو حركة تبدر منه .

ثم سأل الصبي :

ـ هل نذهب الى هناك ؟

أومأ فنتر برأسه موافقاً . لقد شعر بقلبه يخفق بقوة بين ضلوعه .

كان ثمة قارب على الساحل العشبي ، وشاهد فنتر ، ان الصبي يعرف كيف يفتح القفل ليحرر السلسلة الحديدية . كان القفل صدئاً ، ويسهل فتحه . مجرد لعبة في الواقع .

أضاف الصبي :

ـ أعرف موقعاً مرتفعاً للصيد على الجزيرة ، وأستطيع رؤية الأوكار منه . لقد بناه أحد الطلبة .

أثناء ذلك مرقت فوق رأسيهما طيور كالرعد الأزرق ، وتأرجح القارب في الماء ، ثم تهادى سرب من الأوز الرمادي فوق البحيرة . أخذ فنتر يجذف بسرعة ، تاركاً عضلاته تتحرك ، وكان في الوقت ذاته يرقب ساحل الجزيرة .

قال الصبي مؤشراً هنالك ولكن فنتر كان يعرف الموضع لوحده ، حتى أثناء الظلام .

اندفع القارب مخترقاً القصب ، وأحدث ارتطامه به دوياً جافاً .

قال الصبي بزهو :

- لا يستطيع أحد الوصول الى الجزيرة فالأرض المغطاة بالأحراش عميقة جداً .

ولكنني أعرف طريقاً معيناً ، قادتني أمي اليه .

سأله فنتر :

- هل فعلتْ ذلك ؟

قفز الصبي من القارب وتسلق جذع شجرة ، ومن ثم مدّ ذراعه نحو فنتر . كان فنتر يعرف جذع الشجرة ، فهو يؤدي الى أرض الجزيرة وسط الأحراش والقصب ، ولكن المرء لا يتمكن من رؤيته من البحيرة ، وفوق هذا المكان سارت انجه عارية القديمن والريح تداعب شعرها الأشقر .

في نهاية الجذع ممر صغير تم شقّه بعناية عبر الأحراش ، انه غير مستقيم وتكسوه الجذور . لقد فتحه فنتر بنفسه ، قبل أحد عشر صيفاً .

توقفا قرب شجرة صنوبر ، كان فنتر يعرف المكان ، رطباً ورخواً ، لا يحتاج المرء فيه الى فراش . لقد اكتسى شعر انجه آنذاك بأوراق الصنوبر الابرية .

عالياً ، في قمة الشجرة ، شاهد فنتر أغصاناً متشابكة بشكل فوضوي ، والى جانبها موقع صالح للصيد . كما وشاهد سلماً مطروحاً على الشجرة . لم ينظر الصبي الى الخلف عندما تسلق الشجرة بسرعة كالقطة .

جلسا الواحد جنب الآخر في المخبأ المعد للصيد على لوح رفيع مفروش بأغصان الصنوبر . وعلى الشجرة المجاورة أمامهما شاهد فنتر عشاً ، وخلفه عشين آخرين ، كما ولاحظ تحتها بقايا قشور بيض زرقاء مائلة للخضرة ، وسمع فنتر فراخ البلشون تزقزق بسرعة محدثة ضجيجاً عالياً .

ضغط الصبي باصبعه على فمه وهو يقول لفنتر :
يجب أن تهمس
وفي الحال فكر فنتر في نفسه :
إنه فم انجه . أجاب فنتر وهو يحيط كتف الصبي الضعيف بحذر وتحفظ :
ـ خاطبني باسمي فقط دون تكلف .

فجأة مرق أحد الطيور المسنّة بحوصلته الممتلئة وحطّ على العش . واستقبلته الفراخ بصراخها وهي تضرب بأجنحتها . ثم تمكن أحد الفراخ من مسك منقار الطير المسن وأخذ يمتص مافي داخله ،

وأخيراً تمكن من سحب الغنيمة من حوصلته . وهنا هجمت عليه بقية الفراخ ، لتتقاسم معه الوجبة الكبيرة . وعلى حين غرة انتصب طائر البلشون المسن واقفاً ، ورفع رقبته ، وبدا مجدداً بحجمه الكبير ، ثم شرّع جناحيه ، وتقدم بقفزات طويلة الى الأعلى ، ثم انطلق كالسهم عمودياً محلقاً في أعالي السماء . وفي أثناء ذلك تمكن فنتر من مشاهدة ريش عنقه الناصع البياض ، وريش ظهره الفضي المائل للرمادي ، وعينيه الصفراوين الفاتحتين بحدقتيهما السوداوين .

« يا له من عش » هذا ماجال في ذهن فنتر « انه عالم مغلق لذاته » .

أحس فنتر بالجفاف في فمه . لقد راودته رغبة جامحة بمداعبة شعر الصبي ، فهو كشعر انجه ، ولكنه لم يتجرأ على فعل ذلك .

بتردد سأل فنتر الصبي :

ـ هل يعاملك والدك جيداً ؟

نطق كلمة « والد » بصعوبة لا توصف . أجاب الصبي بسرعة .

ـ أجل

حلّق طائر من طيور البلشون فوقهما ، متوجهاً الى عش آخر ، عاقفاً جناحيه الى الأسفل وباسطاً ساقيه الى الأمام لتخفيف سرعة طيرانه ، ثم وقف على حافة العش وأخذ يتلفت حوله . ومن ثم اختفى في أعماق العش .

عندما ترجلا من الشجرة نزل الصبي أولاً ومشى نحو كوخ مصنوع من خشب الصناديق ، تحت ظلال شجرة البلوط . نظر فنتر الى

جذعها وأغصانها ، كانت شقوقها شبيهة بتجاعيد أكبر شيخ من رجال قرية بيرنباخ . وعندما هبّت زوبعة عارمة وقف فنتر والصبي متلاصقين .

قال الصبي :
ـ الوالدة تفضّل الجلوس هنا عندما نأتي الى الجزيرة واستطرد قائلاً وأحياناً تبدو حزينة في جلستها .

جلسا على لوح خشبي على الصخور . كان فنتر قد أسند رأسه بين كفيه مصغياً لحديث الصبي .

ساعات قضاها الصبي جالساً في مخبأ الصيد على الشجرة ، بلا حركة دون أن يصدر أي صوت ، في حين كانت الريح تؤرجح تاج الشجرة يمنة ويسرة ، والى الأمام والى الخلف لقد شعر بالألم في ظهره ، ولكن لايجوز له ان ينهض واقفاً ، والا فان الطيور ستهرب من الأعشاش . حلق فنتر مع أفكاره :

في القريب العاجل ، ستمتد الحقول الى البحيرة . فخبراء تحسين التربة كانوا هنا ، وقاموا بمسح الأرض ، وستنتصب على ساحل البحيرة البيوت الريفية الخشبية في العام القادم عندما ستصل معدات تجفيف التربة ، وهكذا يجري الصراع بين الوقت وهدوء البحيرة .

قال الصبي فجأة :
ـ لا يحق لأي فرد أن يخرّب عشاً ولكن فنتر قد واصل صمته ، الى ان تنبه الى نظرة الصبي المتسائلة ، فقال :

ـ لا أحد يحق له ذلك ، لقد تجهّم وجهه ، والتجاعيد بدت على جبينه عميقة أكثر من ذي قبل .

ثم كرر قوله : «لا أحد» وكأنه يخاطب نفسه ، ولا يحق له مطلقاً أن ينفذ الى عالم الصبي . فصمت انجه كان جداراً صامداً بوجه الحقيقة .

عندما توجها نحو القارب ، انطلق طائر أمامهما بحركات سريعة ملتوية على نحو متعرج ، محدثاً ضجة ، واختفى في الأفق . طوال لحظات ، حينما صعدا الى الزورق ، وبعد ان جلسا ، قبل أن يأخذ فنتر المجذاف ، تناول يد الصبي وضغط عليها وسأله : هل نحن أصدقاء ؟ لقد ارتعد فنتر نفسه من السؤال الذي بدر منه ، ولكن الصبي أومأ برأسه موافقاً . ثم أخذا يجذفان للعودة .

تلاطمت أمواج الماء الصغيرة بالزورق ، تلك الأمواج التي حركتها الريح القادمة من بيرنباخ . أحس الطفل بالعينين المشابهتين لعينيه بشكل عجيب ، تحدقان فيه لكن الرجل بقي صامتاً ، حتى وصلا الساحل ، وأخذ يسير عبر حقول اللفت متوجهاً الى بيرنباخ .

من المؤكد انــه
سيعود يوماً مــا

غونتر ديبرون

غونتر دي برون

ولد غونتر دي برون في المانيا عام ١٩٢٦ . عاش الحرب العالمية الثانية جندياً ، واشتغل معلماً وأميناً لمكتبة عامة ، ثم تفرّغ للعمل روائياً وقاصاً .

تتسم مؤلفات دي برون الأدبية بطابعها الواقعي ، ذي النظرة النقدية الساخرة . ومن مؤلفاته ، رواية «الحمار» التي ترجمها الى العربية الروائي المصري صنع الله ابراهيم .

وفي يوم ما سيعود أخي الكبير كارل هاينز الى هنا حقاً . لقد مر أمام السينما ، ووصل عمود الاعلانات ، ذلك المكان الذي نستخدمه جميعاً ، والذي مازلت أستخدمه حتى اليوم . انه قادم عبر الشارع مرتدياً ثوب النايلون الأبيض والسترة على ذراعه ويده في جيبه ولا يحمل أية أمتعة ـ سيجلبها حمالان أو سيارة نقل الأمتعة السريعة ـ انه يتجه تماماً الى ذلك المكان في ركن الشارع الذي شُيّد عليه البيت ، حيث كنا نمر به باستمرار ، وهاهو ينظر الى الحديقة ثم يرفع ناظريه الى طابقنا الرابع . وفي وقت ما سيقول عند رؤيته البيت الخلفي القائم الآن تحت الضوء «ستعود علينا الشمس بعدالة مجزية في يوم ما» أو ماشابه ذلك . ولكنه الآن مايزال في حيرة من أمره ، اذ لم يتعرف في الحال على كل شيء . اثنان وعشرون عاماً تعتبر فترة طويلة . وهو غير مرتبك ، تلوح الدهشة عليه حسب ، وماعدا ذلك ، فالهدوء ورباطة الجأش يطغيان عليه ، كعادته .

نظرته تنطق «والآن هذا ماحل بالدار التي ولدت فيها ؟ انها في مخيلتي على شكل آخر . لقد انتهى الأمر ، ثم ينطلق عبر الشارع بفراغه وهدونه ، كما هو الحال في صباح أيام الأحد الصيفية ، وأنا ذاهب لجلب الحليب ماسكاً يد الصغير الذي يعتبر التجوال في الشارع

لوناً من المغامرة والذي آمل أن لا ينسى مطلقاً ، كيف كانت الحال عندما عاد عمه في الصباح الباكر ، وبصورة غير متوقعة ، الى الدار .

ببطء وبحذر توجه أحدنا نحو الآخر ، ولكن ليس بتلك الصورة المألوفة التي اعتاد تصورها مشاهد السينما المجرّب . صحيح أنني عرفته فوراً ، الا انني كنت سأجتازه فيما لو انه لم ينقذ الموقف ، لأنه في نهاية المطاف كان متهيئاً ذهنياً ، فهو يعرف بانه عائد الى البيت وهو يتوقع لقاء أخيه الصغير . أما أنا ، فذاهب لجلب الحليب لأطفالي ، لا أتوقع أن أخي الكبير قادم فجأة من الشارع دون سابق انذار ، وبعد مضي اثنين وعشرين عاماً . ففي مثل هذا الموقف يتردد المرء ، مع انه لم يتغير كثيراً ، أو أيضاً لأن هذا الموقف مناف للتقاليد . ولكن من المحتمل ان يرى المرء فيما بعد التجاعيد والقسمات الحادة التي غطت وجهه وبريق عينيه الذاوي وسمنته ، أما الآن فانه يرى فقط تلك القسمات المألوفة والنظرة الساخرة – الطيبة واليد النحيفة التي تبدو لمن يراها فظة ريفية الطابع ، مما يوقظ في النفس الشعو بعدم جدوى تقليد الأخ الأكبر . ومن الطبيعي أن يعود فوراً ذلك الشعور الخطير بالضعف تجاهه ، وذلك عندما تعانقت أيادينا ، ومن ثم وبعد فترة قصيرة أيضاً عندما عانقته بقوة راودني هذا الشعور دون أن أشعر بأن ما أقوم به هو تمثيل غير مشروع ، وكذلك عندما أخذ يضحك ، كالسابق ، حول تعلقي بعاطفتي الجياشة . وكذلك بدت ضحكة ساخرة على محياه أيضاً عندما قدمت له عديله ، اذ اعتبر الأمر مثيراً للسخرية ، في ان يكون لاخيه الأصغر عائله .

ولقد عاد تواً ذلك العناد المتأصل في القدم : أجل أخي ، بامكانك أن تغمز ، ولكنني لا أريد سوى البقاء في البيت دوماً وأن

أعيش بوضع طبيعي متوسط الحال . من الطبيعي انني لا أرغب في سوى ذلك ، لأنني أعلم بأنني لا أقدر على غير هذا الأمر ، من السيء ان تدرك زوجتي فجأة ماأنا عليه ، وذلك على اثر مقابلتها لكارل هاينز . أشعر بشيء من الخجل ، وبقليل من الغيرة ،وبشيء من الزلل ، كما وأشعر بفخر عظيم ، عظيم جداً بأخي الكبير ، وبتلك الفرصة الكبرى التي اجتاحتني اثر هذه العودة ، التي لم أشك بها مطلقاً ولكنها بدت لي بعيدة عن الواقع بسبب هذا القطع غير المتوقع لرتابة حياتي المرضية .

لقد تجاوزت ابنتي هذا الانطباع أكثر من غيرها . فهي مازالت تستمع بلهفة الى حديثي حول لقائنا الأخير ، عام ٤٤ ، محطة القطار المهدمة ، النزول من القطار محظور ، التوقف لعشرة دقائق فقط ، وهاهو يقف الى جانب الكثيرين في باب عربة نقل الحيوانات ، ووسط الزحام تقف الأم في المقدمة ، صفارة القطار ، التلويح بالوداع ، بكاء ، ومن ثم تسأل البنت عمها ، كيف استطاع أن يترك الأم والأخ طوال اثنين وعشرين عاماً دون أي خبر منه ، وتملكني القلق ، في انه سيشكك الآن بحقيقة عودته من خلال اضطرابه وغموض ذكرياته ، وفي انه من المحتمل سيعترف بانه ليس كارل هاينز نفسه . ولكنه يبدأ فوراً بالحديث بثقة وبدقة ، وكل ماتحدث عنه يتفق مع ماعرفناه سابقاً : سانت نازير ، وخلفها ضجيج محركات الدبابات الامريكية . هاهو يقول لسائقه ، علينا أن نقوم بسلم خاص بنا ، ثم يترجلان من السيارة ويسيران باتجاه « اليد فورسيس » ، وفجأة يفصل بينهما الى الأبد سور من الشجيرات . أجل هذا صحيح ، لقد عرفنا ذلك ، ففي عام ٤٧ عاد السائق وزارنا . ولكن فيما بعد ؟ ماذا حدث بعد ذلك ؟ هانحن نجلس جميعنا حول مائدة المطبخ ، وهو قبالتي يحشو غليونه بتبغ ذي

رائحة اسطورية ، انه نوع خاص ، فهو لا يرضى التبغ المصنع الاعتيادي . بعد مضي دقيقتين على افتراقه عن السائق القوا القبض عليه ، تحقيقات ومقابلات ، ومن ثم دورة تدريبة قصيرة ، تلتها حياة جميلة في لوكسمبورغ والعمل في محطة الاذاعة الموجهة للجيش الالماني ، ولكنها استمرت فقط حتى مايس من عام ٤٥ ، وبعد ذلك ، معسكر ، جوع ، براغيث . وأصبح ناضجاً لعرض للعمل في المخابرات ، الالتزام لعشرين عاماً ، سويسرا ، النمسا ، طنجة ، اليونان ، جنوب افريقيا . انه ينتفض النهاية ، مضى كل شيء . قلق ، في المجيء الى هاهنا ؟ وهنا يسخر مجدداً من الأخ الصغير ، الغريب عن العالم ، رجل البيت . لا تخف ، فالتغيير قد خطط له منذ فترة طويلة ، انه يستحق ان يرتاح هنا . من الصعوبة عليّ بمكان ، ان ابتسم كدلالة على تفهمي اياه ، لأنني أفكر بالوالدة . في سيارتنا الترابانت سافرنا اليها في آلترز هايم . لازال اليوم يوم الأحد . انه يقود السيارة . يتملكني الخوف عند مشاهدة أي شرطي ، لأنني لا أتجرأ على سؤاله عن اجازة سوقه . ولكنه يقود السيارة بصورة جيدة ، وقد تعلم ذلك في الدير ، عند الكهنة الكاثوليك الفرنسيين ، الكهنة السكوتيين ، الذين لا يجوز لهم التحدث أو الكتابة ،ولكن يحق لهم قيادة السيارة . لقد عمل كسائق طوال عشرين عاماً لنقل مرضى مستشفى المجانين . فبعد انفصاله عن السائق مباشرة واجه رجال الماكويز خلف سور الشجيرات ، لقد هرب ، ووجد نفسه واقفاً أمام جدار لا نهاية له بصورة مفاجئة ، جدار أبيض عال لا يمكن اجتيازه ، ولكنه اجتازه ووجد الرعاية عند الكهنة الخرس . وفي أيام معركة آردين قطع على نفسه عهداً بضرورة تمسكه بالايمان الصادق ،ولكنه يشعر بحنين جارف الى الوطن ، الذي لا يمكن ان ينتزعه منه قسم البشرية بأجمعها .

ثم نسير في طريق البارك صوب الدار وهو يتقدمنا ساحباً بيده الصغير ومتأبطاً ذراع ابنتي وكأنها زوجته . وعندما تريه شعر الوالدة الأشيب خلف الشباك ، يلوح لها محيياً باطمئنان ، فهو لم يعرف بعد ، انها لا تتمكن من الرؤية من مثل هذا البعد . ومن الطبيعي انه يحدثها بصوت خافت جداً . ولكنها لم تنهره كما كانت تعاملنا دوماً بقولها : ألم تعلمكم المدرسة التحدث بصوت عال وواضح ؟ انها تعانقه مرات ومرات وتتحدث معه كما مع الوالد ، الذي لم أتذكره الا بالكاد ، لأنه سقط صريعاً في بولونيا . كان كارل هاينز بالنسبة لي بمثابة الأب ، وهو قد عاد الآن ، ومظهره الرصين الواثق بالنفس يدعو الى الراحة ، ومظهره الشاب يثير الغرابة ، وأخيراً عاد الى هنا بثوبه الأبيض ، بعد مضي اثنين وعشرين عاماً . وهوعندما هدد الخطر حياته لم يعد يستطيع الكتابة . فما ان اختفى السائق خلف سور الشجيرات ، حتى جلس في الحال خلف مقود السيارة واندفع بها نحو الوطن .

كان من الواجب عليه أن يختفي عند نهر الراين لمدة شهرين ، قبل ان يتوجه الى هناك خفية ، حيث قضى ليل الشتاء لدى فلاحة في منطقة الهارنز ، وفي نهاية المطاف وصل حدود المدينة في احدى امسيات نيسان ، حيث قضى الليلة في سقيفة ريفية قرب شونفيلد – كان بامكانه ان يصل البيت خلال اربع ساعات – ولكن شخصاً روسياً عثر عليه ، أو بدقة امرأة روسية تحمل رتبة نقيب ، احتفظت به طوال أربعة أشهر بالبزة العسكرية دون أن يعرف أية كلمة روسية . لقد سرحت نتاشا ، ثم العودة الى سيبريا ، وهناك عاش كصياد للحيوانات الغنية بفرائها ، ثلاثة أطفال ، وعليه ان يعود خلال أربعة أسابيع ، والتحليق بالطائرة لا يستغرق سوى ساعات ، ولكن بعد

مضي أيام سافر بالزحافات التي تجرها الكلاب . ينتابني الم جنوني عندما أتذكر الفراق ، الذي سيبعد فيما بيننا مجدداً في القريب العاجل ، ولكنه ينظر اليّ بسخرية من مكانه قرب الوالدة ، وأنا لا أدع رأسي يسقط على كتفه ، لأن زوجتي موجودة ، وكذلك الأطفال ، والكبرى في الثالثة عشرة من العمر ، وأنا أشعر بأنني مصاب بالحمى ، ولا أستطيع النوم ، بل الاستلقاء بهدوء ، كي لا أزعج الزوجة ، التي تتنفس قربي ، ولكنني لا أستطيع الاستلقاء بهدوء أكثر من ذلك ، فرأسي يؤلمني ، وأشعر بالعطش . ورغم هذا كله ، فالحال ليست سيئة ، لأن أخي الكبير قد عاد الى هنا أخيراً ، بثوب النايلون الأبيض وبعد اثنين وعشرين عاماً .

الحارس الأمين

انّا سيغرس

انّا سيغرس :

تتمتم الكاتبة الالمانية انّا سيغرس - Anna Seghers - بمكانة هامة في الحركة الأدبية الالمانية المعاصرة ، كما وترجمت نتاجاتها الروائية القصصية الى العديد من لغات العالم . لقد شغلت انا سيغرس منصب رئيس المجلس المركزي لاتحاد الكتّاب الالمان منذ تأسيسه في أوائل الخمسينات وحتى عام ١٩٧٨ . قد اعلنت أمام المؤتمر الثامن لاتحاد الكتاب الالمان عام ١٩٧٨ عن رغبتها في التخلي عن تحمل مسؤولية مهام الرئاسة لأسباب صحية . وقد قيم المشاركون في هذا المؤتمر خدماتها الجليلة في مجالات الأدب والثقافة تقويماً عالياً وانتخبوها رئيسة فخرية للإتحاد .

في مدينة ماينز ، عروسة نهر الراين ، ولدت انّا سيغرس في عام ١٩٠٠ . درست الفلسفة وتاريخ الفن ونالت شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٢٤ . وقد صدرت أولى قصصها الموسومة «انتفاضة صيادي السمك في سانت بربارا» في عام ١٩٢٨ . وموهبتها الأدبية الفذة قد انعكست بوضوح في مؤلفاتها ... تلك المؤلفات التي ترجمت آفاق وعيها الانساني وارتباطها الوثيق بالشعب الالماني .

في العيد الستيني لميلادها كتب الأديب البرازيلي الكبير جورج امادو :

« ... ان أكون صديقاً لانّا سيغرس ، فذلك من أجمل الأمور ، ومن أروع المصادفات التي واجهتني . ولكن الصدف لم تمنحني تلك الفرصة ... فرحة الالتقاء بها تحت سماء البرازيل الاستوائية ، وأراها تتجول ، وسط أنغام اوركسترالية . في شوارع باهيا أو في ممرات مدينة البرازيل التي زُفّت حديثاً ...»

لقد فارقت انا سيغرس الحياة عام ١٩٨٣ .

من مؤلفات انا سيغرس وتاريخ صدورها :

الروايات

١ - رفاق السفر - ١٩٣٢

٢ - المكافأة - ١٩٣٣

٣ - الطريق في شابط - ١٩٣٥

٤ - الانقاذ - ١٩٣٧

٥ - الصليب السابع - ١٩٤٢

٦ - ترانسيت - ١٩٤٣

٧ - يبقى الأموات أحياء - ١٩٤٩

٨ - قرار الحسم - ١٩٥٩

٩ - الثقة - ١٩٦٨

القصص

١ - عصا النحل (مجموعة قصص انجزتها المؤلفة في خلال الفترة ١٩٣٦ - ١٩٦١)

٢ - قوة الضعفاء - ١٩٦٥ .

٣ - الأزرق الحقيقي - ١٩٦٧ .

٤ - عبور - ١٩٧١ .

٥ - لقاءات غريبة - ١٩٧٣ .

لم يلتفت أي فرد في القاطرة الى الشخص ، الذي يحمل بين ذراعيه طفلين هزيلين ، فكل واحد منهم غارق في همومه التي تكفيه لقطع مسافات طويلة . هذا ما حدث في قطار المساء بين مدينتين في منطقة الرور . كانت المنطقة رهيبة بمصانعها الميتة ، وكان يوماً قاسياً ، بدا فيه الجميع في غاية الارهاق .

في المحطة القادمة ازدحمت القاطرة كلياً . واندست بين الركاب فتاة في مقتبل العمر ، نحيلة القوام ، ذات وجه رقيق . أما الرجال فكانوا أفظاظاً . كان بامكانها أن تفرح لانها لم تسحق وسط الباحثين بغضب عن مكان . وحين شاهدت الرجل مع الطفلين لاحظت انه مريض ، بل ومرهق حد الموت . انتزعت منه الطفلين وحاولت رفع الجزء العلوي من جسدها كي تهدهد الطفلين بعض الشيء .

«انت طيبة» .

«تبدو مريضاً . لماذا تسافر ؟»

«لقد وجدت عملاً ، يا فتاة تصوري ، عمل . طوال خمس سنوات لم يكن لدي أي عمل . والآن وجدت عملاً . هل لك أن

تتأملي ذلك ؟ لذا فانه يتحتم عليّ الذهاب الى هناك . وحين أكون هناك ، فانني سأشفى تماماً » .

« أتشعر بحمى » .

« محتمل ، بعض الشيء . كنت مريضاً ، ولقد سبقتني زوجتي لتبحث عن مأوى . عليّ أن أزاول عملي غداً . كحارس ليلي في مصنع ، لاشك انه موضع ثقة » .

« الآن يجب أن تنام » .

استجاب الرجل لها ونام . همست الفتاة : نوم مريض .

توقف القطار وأصبحت القاطرة خالية . في بادئ الأمر لم تستطع ايقاظه ، وحين رفعت رأسه قليلاً سقط مجدداً .ولكنها في النهاية استطاعت ان تنقل الرجل والطفلين والأمتعة الى صالة المحطة ، وكان الرجل قد فقد وعيه تماماً ، كان هنالك جمهرة من الناس ، وكان على كل واحد منهم ان يذهب في طريقه . وعندما وضع الممرضون الرجل على حمالّة ، أخذ يصرخ « لا أريد الذهاب الى المستشفى » . ثم تذكّر الأطفال « زوجتي تنتظرني في شارع غيربر ، في الدار المرقمة١١ » .

كان اسم زوجة هذا الرجل كاترينا . وقد سافرت قبله لايجاد مكان للنوم وبقيت تنتظره . كانت امرأة بدينة غامضة وقد انتابها السرور عندما طرقت الفتاة الباب بصحبة طفليها !

« اسمي ماري ، زوجك مريض » .

« ولكن هذا مستحيل اذ ليس بامكانه ان يلازم السرير » .

وكان وجه كاترينا قد أصبح متجهماً ، حاداً .

«اذهبي اليه الآن فقط ، وسأرعى الطفلين ، فليس لدي مكان آوي اليه» .

عندما سألت كاترينا عن زوجها في المستشفى ، اقتادتها ممرضتان الى الرئيسة ، والأخيرة أخذت بيدها بعطف «ان حالة الرجل سيئة بل وسيئة جداً ، أسوأ مايمكن» . هنا شعرت المرأة بالغضب يجتاحها «ولكن ، مع ذلك ، هذا محال . فقد حصل أخيراً على عمل ، ظللنا نفتش عنه طوال سنوات» . ثم انتابها الهدوء فجأة . لقد سلموها ملابس وأوراق المتوفي . وفي طريق عودتها جلست على مقعد للاستراحة وراحت تستعيد دقائق حياتها ، بوجه صارم . لم تبك بل طرأت لها فكرة استغرقتها تماماً . . .

في اليوم التالي قدَّم الحارس الليلي الجديد نفسه الى مكتب ادارة المصنع . انسان قليل الحديث «هؤلاء هم أحسن الحراس» . كانت أوراقه كاملة ، فقبلوه .

لقد بقيت ماري مع الطفلين ، وهكذا حصلت هي أيضاً على خبزها . استأجرت المرأتان شقة للسكن ، وادعوا انهم عائلة واحدة ، امرأة ورجل وطفلان . فأعجب أهل الدار بالمرأة الشابة وبالرجل ، لانه كان قليل الكلام وعلى استعداد لأن يمد يد المساعدة في أكثر الحالات . واحترم العمال الرجل في المصنع أيضاً ، حيث كان يتواجد في مكانه مع كلبه ومسدسه في الساعات المحددة لعمله ، ولا يتأخر عنه دقيقة واحدة .وكان هناك مايشبه العجب يسري بين العمال بشأن

ماري ، اذ كيف يتسنى لشابة فتية ورقيقة ان تعيش الى جانب هذا الرجل الصارم . وكان جورج ، وهو عامل شاب قد أحبها حد العذاب . لقد أحسّ هو أيضاً ، انها تميل اليه .

قالت كاترينا بنبرة حزينة«اذا ذهبت اليه ، فان كل شيء سينهار» . أجابت ماري «لن أذهب اليه . اذ لا يجوز ان نفقد عملنا . فهو الأهم كما يبدو لي» .

لم ينل جورج سوى لمسة من يدها ، وقبلة خاطفة في ممر المنزل . شاهدهما الجار ، وحين راح يبحث عن الزوج عبر نافذة الغرفة المطلة على باحة الدار ، وجد ، عوضاً عن الرجل ، جسداً ضخماً لامرأة عارية . ثم تشاجر «الرجلان» حول العائلة وأقلقوها ، وكانت البهجة من نصيب الطفلين فقط . ولذلك فكرت المرأتان بانهما قد تصرفتا بحكمة ، لأن الطفلين لم يتعرضا للجوع . فصفوف العاطلين عن العمل تزداد طولاً ، وهذا يعني بذل جهود مضاعفة من أجل الحفاظ على العمل حتى ولو كان شاقاً .

حدث مرة في احدى الليالي سطو ، ولكن الحارس الليلي كان يقظاً ومسيطراً ، واستخدم المسدس ، فازداد احترامه في المصنع والحي . صحيح ان المرأتين كانتا تتمنيان ان تقضيا ليالي ممتعة بعض الشيء ، الا ان الخبز كان أقوى من ان يجعلهما تنعمان بشيء من السعادة ، رغم ماكان يبدو عليهما من تفاهم ظاهري .

لقد أحسّ الجار ان هناك امرأة داخل بدلة الحارس الليلي ، وخاصة عندما تنحني أو عند نزولها درجات السلم . وانتهز في أحد

المرات فرصة وجودها ، ففتح الانجيل أمامها وأخذ يقرأ «ينبغي على الرجل أن لا يرتدي أشياء النساء . كما وينبغي على المرأة ان لا تتصرف بملابس الرجال» . وهنا أغلقت كاترينا الكتاب وقالت «لقد قمت بذلك لاطعام الطفلين» . خجل الرجل وطمأنها «أنا لست ثرثاراً» .

ازدادت لقاءات ماري مع جورج ، كما ارتفعت حرارة قبلاتهما . ولكن جورج كان قد فقد عمله . في حين ان الحارس الليلي كان واحداً من القلائل ، من بين رجال المنزل ، الذين مازالوا في العمل .

في ليلة ما حدث انفجار في المصنع وانطلقت صفارات الانذار وامتلأ المصنع بالصراخ والجرحى . وحين عادت كاترينا الى وعيها . وجدت نفسها مستلقية في مستشفى النساء مع نساء أخريات . وحيث انها لم تكن قد انتبهت الى ضمادها ، قفزت من السرير وجرت نحوالرئيسة ، وأمامها كررت نفس الكلمات التي سبق وان نطقتها مرة في أحد المستشفيات أمام المسؤولة «هذا محال . لقد حصلنا على عمل» .

ولكن سبق السيف العذل ، كما يقال . فقد أرسلت الأوراق وانكشف سرها .

جاءت الشرطة الى شارع غيربر . وحين أدرك الناس في المنزل تصرف المرأة ، أخذوا يشتمون «ماذا تريد الشرطة ؟ انهما امرأتان شجاعتان ، لم تؤذيا أحداً» . وما كادت كاترينا تتسلم أمر فصلها ، حتى تجمع عمال المصنع وقدموا عوضاً عنها شكوى . ولدى وصول

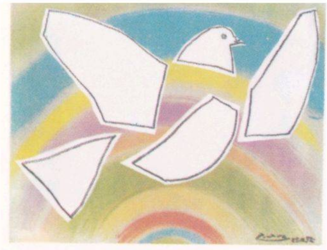
كاترينا فيما بعد أخذ كل واحد منهم يدها ، ورافقوها الى غرفة الادارة «سنساعدك . لا يحق لهم أن يرموك الى الخارج» .

في الداخل ضربت كاترينا المنضدة بقبضة يدها كعادة الحراس . وهنا قالت الادارة «نحن لا نريد لك سوى الخير . وكل ما هنالك فاننا سنأخذ منك عملاً شاقاً لنعطيك موقعاً أسهل» .

كان الموقع السهل الجديد عبارة عن سطل ومكنسة وقطعة قماش للتنظيف . لقد صُعِقَتْ كاترينا ، ولكنها تقبلته وبدأت تمسح ، لأن الأطفال يبقون أطفالاً ، والخبز خبزاً .

لقد أصبح العمال يحترمونها أكثر من السابق قدر الامكان . قالوا لها «لو ان الأمر مناط بنا يا امرأة . لكنت تحصلين على عمل آخر في هذه الحياة» .

فهرس



من الخطأ الفادح ان يُثار الجدل عن هامشية «الأشكال القصيرة» مقارنة مع «الكبيرة» ، وان يسود التصور«أن للقصة القصيرة مهمة آنية ومحدودة فقط . ان نصوص القصة القصيرة يمكن أن تكون بمثابة عناصر البناء للاشكال الملحمية الكبيرة .

اخترت نماذج من القصة الالمانية القصيرة وقمت بترجمتها ، وها أنا أقدمها للقارئ ، اضافة جديدة في ميدان فن كتابة القصة القصيرة الالمانية المترجمة الى العربية . انها محاولة متواضعة ، آمل ان تسّد بعضاً من الفراغ الذي نعاني منه في ترجمة النصوص الالمانية الابداعية .

غانم محمود

دار المدى للثقافة والنشر